قبل أن يُضرب السُّور

أ. د. إياد قنيبي

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٣/١/٥٥٠)

٢١١
قنيبي، إياد عبد الحافظ حماده
قبل أن يضرب السور/ إياد عبد الحافظ حماده قنيبي.- عمان: المؤلف، ٢٠٢٣
( )ص.
ر.إ.: ٢٠٢٣/١/٥٥٠
الواصفات: / الوعظ والإرشاد// الآداب الإسلامية // الثقافة الإسلامية /
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

هذا الكتاب

١. تنبيه علىٰ واحدة من أخطر الظواهر في حياة المسلمين المعاصرة.
٢. تصحيح لمفاهيم الناس عن ظاهرة النفاق.
٣. عرض متكامل ومترابط لظاهرة النفاق مع ضرب أمثلة من الواقع.
٤. محاولة لفهم العمليات النفسية المؤدية إلىٰ الوقوع في النفاق.
٥. تنبيه للمسلمين أن كثيراً منهم قد يقع في صفات نفاق وهو لا يشعر.
٦. مساعدة علىٰ علاج النفس من صفات المنافقين.

أيها القارئ...شَخِّص نفسك وعالجها قبل أن.... يُضرب السور!

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحَدِيد:١٣]، سورٍ يُضرب بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة فلا يَرىٰ المنافقون النور ولا يدخلون الجنة مع المؤمنين.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب	٣
فهرس المحتويات	٤
مقدمة تبين أهمية الموضوع	٨
حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس	١٩
النفاق يتجزأ وليس على درجة واحدة	٢٠
انتبه! النص القرآني يخاطبك	٢٣
قد يتقلب المرء بين الإيمان والنفاق	٢٧
قد يقع المرء في نفاق وهو لا يعلم	٢٧
قد يظن المنافق أنه يحسن صنعاً	٢٨
خاف الصحابة على أنفسهم من النفاق	٣٥
صفات المنافقين	٣٨
(١) الشك في الدين	٤٠
(٢) الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ	٥٩
(٣) كراهية ما أنزل الله	٦٨
(٤) تولي المشركين	٨٢
(٥) تغيير الولاء بحسب ميزان القوى	٩٠
(٦) الكذب	٩٤
(٧) كراهية التضحية في سبيل الله	١٠٩
(٨) ثِقَلُ العبادات على النفس	١٢٦

(٩) محبة أن يُمدح ويُحمد على أشياء لم يفعلها أصلاً ١٣٧
(١٠) تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين ١٣٨
(١١) الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين ١٤٠
(١٢) الحرص على الدنيا والتسخط عند البلاء ١٥١
(١٣) الجبن والقبول بعيشة الذل ١٦٠
(١٤) مداهنة السلاطين ١٦٨
(١٥) قلة الأدب مع الله ومع رسوله ١٧٢
(١٦) بُغض المؤمنين وتشويه سمعتهم ١٧٦
(١٧) ابتغاء الفتنة ١٨٠
(١٨) قسوة القلب تجاه القرآن ١٨٥
(١٩) استصغار المعصية واستعظام الطاعة ١٩٠
(٢٠) الإعراض عن التوبة ١٩٦
(٢١) تعريض النفس للفتن ١٩٩
(٢٢) الفجور عند الخصومة ٢٠١
(٢٣) إخلاف عهد الله ٢٠٣
(٢٤) اللحن في القول ٢٠٥
(٢٥) الغفلة عن تأمُّل حِكم الله مِن أقداره ٢١٠
(٢٦) نسيان الله تعالى ٢١٣
كلام مختصر في علاج النفاق ٢١٥
خاتمة ٢٢٤

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

اللهم صل وسلم وبارك علىٰ حبيب قلوب المؤمنين وقرة عيونهم، إمام الصادقين والصابرين، الذي محا الله به الجهالة والضلالة وأنار به الدنيا وجعله سراجًا منيراً..رسول الله محمد بن عبد الله صلىٰ الله عليه وآله وصحبه وسلم..

وارض يا رب عن أصحابه الذين كانوا حوله أسوداً، نصروه ووقَّروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وفدوه بأرواحهم وأموالهم فارْضَ يا رب عنهم وارفع ذكرهم في العالمين واحشرنا في زمرتهم..

أما بعد:

فإني لا أرىٰ الحديث عن المنافقين يعطَىٰ في زماننا حقه في الخطب والمواعظ والمؤلفات علىٰ خطورته البالغة وغفلة الناس الشديدة عنه، وامتلاء القرآن والسنة بزخم كبير عن هذا الموضوع. لذا رأيت أن أستعين بالله تعالىٰ لأجمع أخطر صفات المنافقين في هذا الكتاب، آملا أن يكون مادة يتدارسها الحريصون علىٰ سلامة إيمانهم

وينشرونها فيما بينهم، عساه إن شاء الله تعالىٰ يسهم في التنبيه علىٰ خطورة النفاق والمنافقين.

وقد قسمت الكتاب إلىٰ مقدمة تبين أهمية الموضوع، ثم مفاهيم هامة عن طبيعة النفاق، مَتْلُوَّةً بصفات المنافقين، وتحت كل صفة العناصر الآتية:

-الآيات والأحاديث التي تشير إلىٰ هذه الصفة.

-أمثلة من واقعنا تجسد الصفة.

-آيات وأحاديث تبين الصفة المقابلة التي ارتضاها الله تعالىٰ ورسوله ﷺ للمؤمن في مقابلة الصفة النفاقية المذكورة.

وذلك، بإذن الله تعالىٰ، دون اختصار مخل ولا تطويل ممل.

مقدمة تبين أهمية الموضوع

معنىٰ النفاق:

النفاق في اللغة من النفق الذي يحفره الحيوان وله فتحتان، فتراه إذا أتيته من ناحية هرب من الفتحة في الناحية الأخرىٰ. وكذلك المنافق تتبدل مواقفه بين الإيمان والكفر بحسب الخوف والأمن، وقيل: هو مأخوذ من النفق الذي يحفره الحيوان ليختفي فيه ويستر نفسه، وكذلك المنافق يُظهر الإيمان ويُخفي كفره أو شكه ومرض قلبه.[1]

كثرة المنافقين:

قال ابن القيم في المنافقين: «كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم، لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات».

فابن القيم يدعو بألا يهلك المنافقون كلهم لأن ذلك يعني هلاك كثير من الناس بحيث تتعطل المعايش!

وقيل للحسن البصري-وهو من أئمة التابعين-: «يا أبا سعيد، اليوم نفاق؟»

---

١ (النهاية في غريب الأثر، باب النون مع الفاء والقاف، ص٩٣٣) بتصرف.

يعني هل يوجد نفاق اليوم؟

فقال: «لو خرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتهم فيها»![1]

كثرة الآيات المتعلقة بالمنافقين:

ولكثرة المنافقين وشدة خطرهم في كل زمان، فصَّل الله تعالىٰ صفاتهم في سور مدنية كثيرة.

ألم تر أن الله تعالىٰ بين مرض قلبهم ومخادعتهم للمؤمنين في سورة البقرة، ثم جزعهم وتخذيلهم في آل عمران، ثم إعراضهم عن حكم الله ورسوله في النساء، ثم موالاتهم الكفار في المائدة، ثم شكهم في وعد الله بالتمكين للدين في الأنفال، ثم نكوصهم عن الجهاد والطعن في المؤمنين في التوبة، ثم قلة ثباتهم في الحج، ثم انتقاءهم من الدين بأهوائهم في النور، ثم قلة صبرهم في العنكبوت، ثم إخلافهم عهد الله في الأحزاب، ثم جبنهم في سورة محمد، ثم سوء ظنهم بالله في الفتح، ثم اغترارهم بالأماني في الحديد، ثم حلفهم كذبا في المجادلة، ثم خذلانهم لمن ضعُف من أوليائهم في الحشر، ثم قلة أدبهم مع رسول الله والمؤمنين في «المنافقون»، ثم استحقاقهم الغلظة في سورة التحريم...سبع عشرة سورة مليئة بالتحذير منهم وبالتفصيل في صفاتهم...

أيُظن بعد هذا كله أن ظاهرة المنافقين قد انتهت وأن الآيات التي

---

١ أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (١٠٩) بإسناد صحيح إلىٰ الحسن البصري.

تصفهم لا نحتاجها في أيامنا إلا للتبرك بتلاوتها وتدوين هذه الظاهرة تاريخيا؟!

خطورة النفاق والمنافقين:

فلا شك إذاً أن الله تعالىٰ قد أكثر من ذكر النفاق لنكون علىٰ بينة منه، فنَحذرَ من النفاق في ذوات أنفسنا، ونَحذرَ من المنافقين، ونحذر من أن نغرس أيـًا من صفاته في أبنائنا، بل نحرص علىٰ تربيتهم علىٰ عكس صفاته.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأَنعَام: ٥٥] .

وقال نبينا ﷺ: ((آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ... وإنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ))[1] فالنبي ﷺ يُنبِّه إلىٰ خصال في المنافق حتىٰ لا نغتر بصومه وصلاته وقوله عن نفسه أنه مسلم، فيفتك بالمجتمع الإسلامي والمسلمون مخدَّرون عن الحذر من خطره واتخاذ الموقف المناسب منه.

خطر النفاق علىٰ النفس:

اللحظة الحاسمة...هي تلك التي يَعرف فيها المنافق أنه هالك...استفاق من حلم الخلود في نعيم الجنة إلىٰ يقين الخلود في

---

١ مسلم (٥٩).

عذاب النار...لحظة رهيبة يخاف منها كل مؤمن... مَرَّ المؤمنون عبر محطات التنقية فتمايزوا عن الكفار الصرحاء، لكن ما زال في صفوفهم منافقون...والمنافق تتعاظم أمانيه في النجاة ولم يبق للجنة إلا خطوات...خطوات تحتاج نورا لإبصار الطريق...لكن المؤمنين تقدموا بنورهم تاركين المنافقين في ظلمات كظلمات نفاقهم وشكهم في الدنيا...وما زال لدىٰ المنافقين أماني...يظن ظانُّهم أنه ينجو بما نجا به في الدنيا من كذب وخداع...ظن أن حيلته تنطلي حتىٰ علىٰ ربه عز وجل!...فينادي المنافق كما يصف رب العزة سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحَدِيد]

... عادوا يلتمسون نورا يَصِلون به إلىٰ النعيم المقيم فضُرب السور ليفصلهم عن المؤمنين الذين يتابعون المسير إلىٰ الجنة ...أما المنافقون فحُبسوا وراء السور..وهَوَوْا في عذاب الجحيم!... لحظة فاصلة مرعبة مهولة![1]

خادَعوا الله تعالىٰ طويلا فخدعهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

---

١ أيَّةُ إشارةٍ إلىٰ ضرب السور في هذا الكتاب فإنها تعني هذا السور الذي سيفصل بين المؤمنين والمنافقين عند تمايزهم

فاسأل نفسك يا أخي، واسألي نفسك يا أختي: هل سأكون قبل السور أم بعده عند هذه اللحظة؟!..

تصور نفسك وقد ضُرب السور من خلفك فعلمت أنك مؤمن ناجٍ...فتجثو علىٰ ركبتيك وتبكي مطأطئا رأسك من شدة الفرح والامتنان لله تعالىٰ أن شملك برحمته...

أم يا تُرىٰ يُضرب السور أمامك فتوضع الأغلال في عنقك وتسحب بالسلاسل إلىٰ نار جهنم..إلىٰ قعرها ودركها الأسفل:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]

فاللهم ارزقنا الأُولىٰ[١].

الحذر من المنافقين:

قال ابن القيم: (فإن بلية الإسلام بهم (بالمنافقين) شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه وإلىٰ نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخرِجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْمٌ وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد. فلِلَّه كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من عَلَم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عَمَّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال

---

١ اقرأ الآيات ١٢-١٦ من سورة الحديد وتَدَبَّرْها

يطرقه من شُبَهِهِم سريةٌ بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)[١]

ولخطورتهم قال الله تعالىٰ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]

فحصر العداوة فيهم كأنْ لا عدو غيرهم فقال: (هُمُ الْعَدُوُّ) لأنهم شر الأعداء.

وقال النبي ﷺ:

((إن أخوف ما أخاف علىٰ أمتي من بعدي كلُّ منافقٍ عليمِ اللسان))[٢]... فالمنافق عليم اللسان يُقَبح الحق ويُجمِّل الباطل ببيانه...وقد يَستدل في مسعاه الخبيث هذا بقال الله وقال رسوله!.. حاملا النصوص علىٰ غير محملها. وهذا من معاني قول ابن القيم (وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها) فالمنافق الملسن يحاول دفن الحقيقة ونصر الأهواء السقيمة مستخدما في ذلك بلاغته وخلطه للأمور تعميةً علىٰ الناس.

ولخطورتهم أمرنا الله تعالىٰ أن نتخذ منهم موقفا واضحا حازما...

---

١ مدارج السالكين-الجزء الأول ص٣٤٧-٣٤٨

٢ أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣، ٣١٠)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٤٨)، وفي «ذم الغيبة» (١٠)، والبزار في «مسنده» (٣٠٤)، والفريابي في «صفة النفاق» (٢٤) وصحح إسناده أحمد شاكر، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠١٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٨٦): «رواه البزار وأحمد وأبو يعلىٰ، ورجاله موثقون».

فلم يرض من المؤمنين أن ينقسموا في شأنهم فئتين... فتَلينَ فئةٌ في شأنهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨].

وإنما أحب للمؤمنين أن يجتمعوا مع نبيهم علىٰ جهاد المنافقين والغلظة عليهم. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]

ونفىٰ النبي ﷺ الإيمان عمَّن لم يجاهد -بقلبه كحدٍّ أدنىٰ- أناساً تلبسوا ببعض صفاتهم فقال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[1].

ونهىٰ الله تعالىٰ نبيه والمسلمين عن طاعة المنافقين: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]

وحتىٰ لا ننخدع بهم فصَّل الله تعالىٰ لنا صفاتهم...حتىٰ إذا ما حاولوا خداعنا كان ردنا عليهم: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٩٤].

---

١ رواه مسلم (٥٠).

من ذلك جميعا يُعلم مدىٰ ضرورة التعرف علىٰ صفات المنافقين لنتوقَّاها في ذوات أنفسنا ولنعرف بها المنافقين فنحذرهم ولا نتبعهم...

والمتتبع للتاريخ الإسلامي يرىٰ أن كل بلية نزلت بالإسلام إنما هي من جهتهم...سَوَّدوا صفحات التاريخ سَوَّد الله وجوههم!

فمِنْ جرثومة الشر عبد الله بن أبي ابن سلول الذي طالما أدخل الحزن علىٰ الحبيب رسول الله وجنىٰ علىٰ خلق كثيرين من أتباعه... فبدل أن يكونوا صحابةً في عليين هوىٰ بهم إلىٰ الدرك الأسفل من النار ملاعين.

إلىٰ عبد الله بن سبأ...الساعي بخبثه بين المسلمين حتىٰ أوقع الفتنة بينهم...وكان قدوةَ سوءٍ لمن جمعوا زي الإسلام علىٰ قلوب المجوس فأذاقوا وما زالوا يذيقون أمة الإسلام ألوان العذاب.

إلىٰ «محمد بن محمد مؤيد الدين» ابن العلقمي...الذي خان محمدا ﷺ في أُمَّته، وأيد التتر ومرق من الدين، وأذاق المسلمين العلقم...

إلىٰ «محمد بن محمد نصير الدين» الطوسي، الذي قال فيه ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: «ولما انتهت النوبة إلىٰ نصير الشرك، والكفر الملحد، وزير الملاحدة، النصير الطوسىٰ وزير هولاكو، شفا نفسه[1] من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم علىٰ السيف،

---

١ أي: شفا غليله وشفا حقد صدره

حتىٰ شفا إخوانه من الملاحدة، واشتفىٰ هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقىٰ الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة»!

إلىٰ بعض الأمراء أيام الصليبيين وفي عهد ملوك الطوائف بالأندلس...من تلبسوا بصفات المنافقين فحادوا عن حكم الله ووالوا أعداء الله وكذَبوا علىٰ رعيتهم وعطلوا الجهاد في سبيل الله...فذلت الأمة علىٰ أيديهم وتمزقت وأُريق دمها وسُبِيَت...

فيا ليت المسلمين يكفون عن الاغترار بالظواهر، فلا يُعَمِّي عيونهم عن المنافقين أن يسمعوا لهم أسماء إسلامية... فتحسن بهم الظنون وتلين لهم القلوب...وليس المنافقون لذلك بأهل...فالأول عبد الله، والثاني عبد الله، والثالث والرابع محمد...لا محمد فحسب، بل محمد بن محمد! وكلهم عدوٌّ لله تعالىٰ ولرسوله محمد ﷺ...

انظر إلىٰ جناية هؤلاء علىٰ الإسلام وأهله ونقِّل بعدها بصرك إلىٰ جمعيات النفاق التي أوهَنَتْ الدولة العثمانية...فمزقت الأمة وجعلت المسلمين أيتاما علىٰ موائد اللئام.

وفي كل ساحة يدافَع فيها عن المستضعفين وحرُماتهم، تمتد يد الغدر النفاقيةُ لتطعن المسلمين في ظهورهم وتُقر أعين أعدائهم ...«فالكفر الظاهر علىٰ خطره وضرره يعجز في كل مرة يواجه فيها أمة الإسلام أن ينفرد بإحراز انتصار شامل عليها ما لم يكن مسنوداً بطابور

خامس من داخل أوطان المسلمين ويتسمىٰ بأسماء المسلمين، يمد الأعداء بالعون، ويُخلص لهم في النصيحة، ويزيل من أمامهم العقبات، ويفتح الأبواب»[1]...

لن تجد المنافق يصرح بعداوته للإسلام، بل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة].

فلا تغترَّ بمعسول الكلام، وتذكر ما صح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن أخوف ما أخاف علىٰ أمتي كل منافق عليمِ اللسان).

وفي الوقت ذاته فإن الحذر من النفاق والمنافقين لا يصح أن يدفع إلىٰ رمي الناس جزافا وعند كل شبهة بالنفاق، والحكم علىٰ ما خفي من سرائرهم، بل نأخذ بالظاهر من أحوال الناس. وقد روىٰ البخاري أن عمر رضي الله عنه قال:

(إنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بالوَحْيِ في عَهْدِ رَسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإنَّما نَأْخُذُكُمُ الآنَ بما ظَهَرَ لَنَا مِن أعْمَالِكُمْ، فمَن أظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أمِنَّاهُ وقَرَّبْنَاهُ، وليسَ إلَيْنَا مِن سَرِيرَتِهِ شَيءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، ومَن أظْهَرَ لَنَا سُوءًا، لَمْ نَأْمَنْهُ ولَمْ نُصَدِّقْهُ، وإنْ قالَ: إنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ).

---

١ من محاضرة (رايات النفاق) للدكتور ناصر بن محمد الأحمد

عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم).

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخَن) قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر١٦٤).

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة إلىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها) قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: (هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)[1].

قال ابن حجر في الفتح في قوله ﷺ (هم من جلدتنا): «وقال القابسي: معناه: أنهم في الظاهر علىٰ ملتنا، وفي الباطن مخالفون».

ولهذا كان هذا الكتاب، لتعلم أعمال المنافقين فلا تأمَنهم بعدها ولا تصدقهم.

---

١ أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧)

حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس

إنه ثمة حقائق لا بد من معرفتها لئلا يغفل المسلم عن وجود النفاق في نفسه أو بعض مَن حوله:

١. تعدد المراتب: فالمرء قد يرىٰ في نفسه خيرا يستبعد لأجله أنَّ عنده نفاقًا، وما ذلك إلا لجهله بأن الشخص الواحد قد يجمع بين إيمان ونفاق، وبأن النفاق يتجزأ وله مراتب، وليس علىٰ درجة واحدة، فقد يكون لدىٰ المرء شيء من النفاق، أو يكون منافقا خالصا.

٢. التقلب عبر الأوقات: فقد تمر به أيام يقوىٰ فيها إيمانه فيستبعد لأجلها أن ما يتلبس به في أيام أخرىٰ هو صفات نفاقية، وذلك لعدم علمه بأن المرء قد يتقلب بين الإيمان والنفاق.

٣. الجهل بالحال: فقد يطمئن إلىٰ إرادته الخير ويحسب أنه لو كان منافقا لعَلِم من نفسه النفاق. وما ذلك إلا لجهله أن المرء قد يكون منافقا من حيث لا يعلم، إلىٰ حد أن الصحابة خافوا علىٰ أن أنفسهم أن يكون فيهم نفاق لا يعلمونه لشدة خفائه.

وعامة الناس يتصورون أن النفاق إنما يكون من شخص لا خير فيه البتة، وليس في قلبه ذرة إيمان، ويُبَيِّت للإسلام عداوة وبغضاء يخشىٰ اطلاعَ الناس عليهما.

وحقيقة الأمر أن المنافقين الذين هذا حالهم ظاهرون للعقلاء. بينما النفاق الذي هو أقل حدة ووضوحا هو أكثر انتشارا وخفاء حتىٰ علىٰ أصحابه في أكثر الأحيان، وهنا تكمن خطورته. فهم لا يرون آيات النفاق تتحدث عنهم. ولا يسمعونها علىٰ أن الخطاب فيها موجه إليهم حتىٰ يبادروا إلىٰ التوبة والاستدراك والتخلص من آفة النفاق.

ولأجل ذلك كله أحببنا أن نوضح حقائق عامة عن النفاق قبل الخوض في صفات النفاق تفصيلا. وهذه الحقائق هي:

١) النفاق يتجزأ وليس علىٰ درجة واحدة، وقد يجمع الشخص الواحد بين إيمان ونفاق.

٢) قد يتقلب المرء بين الإيمان والنفاق.

٣) قد يقع المرء في نفاق وهو لا يعلم.

٤) قد يظن المنافق أنه يحسن صنعـًا.

٥) خاف الصحابة علىٰ أنفسهم من النفاق.

١) النفاق يتجزأ وليس علىٰ درجة واحدة

وقد يجمع المرءُ بين إيمانٍ وصفاتِ نفاقٍ.

أ) ولذا قال الله تعالىٰ واصفا موقف المنافقين يوم أحد:

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

قال ابن كثير في تفسيره: «استدلوا به علىٰ أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلىٰ الكفر، وفي حال أقرب إلىٰ الإيمان»[١].

ب) قول النبي ﷺ: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها))[٢].

فانظر كيف أنه عليه الصلاة والسلام قد بين أن المرء قد يتلبس بصفات تجعل فيه شيئا من النفاق.

وينبغي أن نذكر أن بعض شراح هذا الحديث استشكلوا هذا الحديث من حيث أن هذه الخصال قد توجَد في المسلم المصدق بقلبه ولسانه، والإجماع حاصل أنه لا يُحكم له بنفاق يجعله في الدرك الأسفل من النار لهذه الصفات. وخرجوا من هذا الإشكال بتأويلات كاعتبار النفاق المذكور نفاقا عمليا لا اعتقاديا، وأنه ليس نفاقا مخرجا من الملة.

غير أننا في هذا الكتاب لا نتعرض لهذا التفريق بين النفاق الاعتقادي

---

١ أحب أن أبين بداية أنَّ ذِكر تفاسير بعض العلماء في هذا الكتاب لا يعني أننا نَحمل الآيات علىٰ فهمهم دون غيرهم...فأكثر الآيات في الكتاب واضحة الدلالة والحمد لله ولا تحتمل كثير اختلاف. وإنما أذكر أقوال العلماء أحيانا ليعلم قارئنا أننا لا نأتي بما يخالف منهج أهل السنة.

٢ صحيح البخاري ح ٣٣ (١/ ٥٩)، صحيح مسلم ح ٨٨ (١/ ١٩٠)

والنفاق العملي، لأن هذا التفريق إنما يحسن ذكره لمنع المسلمين من الوقوع في تكفير مَن تَلَبَّس بشيء من هذه الصفات من المسلمين بما لا يخرجه عن الإسلام. ونحن في هذا الكتاب لسنا نتصدر للحكم علىٰ من تلبس بصفة من صفات النفاق بالكفر أو الإسلام، فهذا مبحث يحتاج إلىٰ مزيد بحث وتفصيل، وليس موضوع هذا الكتاب. إنما نعتني هنا بالتحذير من صفات النفاق، فيحسن في مثل هذا المقام أن نطلق النفاق كما أطلقه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ ليكون الزجر كما أريد له، ولئلا تَركن النفوس وتَقِلَّ نُفرتُها عن صفات المنافقين.

ج) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب مصفح: فذاك قلب المنافق، وقلب أغلف: فذاك قلب الكافر، وقلب أجرد كأنّ فيه سراجا يزهر: فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان: فمثله مثل قرحة يمدها قيح ودم، ومثله مثل شجرة يسقيها ماء خبيث وماء طيب، فأي ماء غلب عليها غلب»[1].

فانظر إلىٰ التفريق في هذا الأثر بين المنافق الخالص وصاحب القلب الذي جمع إيمانا ونفاقا يتغالبان.

ولهذا قال ابن كثير في تفسير أوائل سورة البقرة: (...ومنافقون،

---

١ صححه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢) والألباني في تعليقه علىٰ «كتاب الإيمان»، ثم عاد فضعفه في «السلسلة الضعيفة» (٥١٥٨). وقد رُوي مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ، لكن الأثر المرفوع أضعف إسناداً.

وهم قسمان: خُلَّص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يَظْهر لهم لُمَع الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم).

ويقصد بالمثل الناري قوله تعالىٰ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: ١٧]

والمثلِ المائي قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]

ويقصد بقوله: تارة يظهر لهم لُمَع الإيمان قوله تعالىٰ:

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ﴾[1]...

وهذا الصنف المتردد نرىٰ له أمثلة في واقعنا، كالذين يتكلمون بكلام المتشككين في شرائع من شرائع الإسلام كتعدد الزوجات والحدود والجهاد. لكنهم إنْ أَوقع أعداء الإسلام بالأمة ظلما جديدا أحسوا بأنهم مستهدفون وزاد تمايز الحق عندهم من الباطل، فقوي إيمانهم وظهر منهم غيرة علىٰ الدين. لكنهم ما يلبثون أن يعودوا إلىٰ ما كانوا فيه من تشكك وريبة.

انتبه! النص القرآني يخاطبك:

ههنا تنبيه: وهو أنه ليس شرطا أن ينطبق النص في المنافقين بكامل جزئياته علىٰ أحدنا حتىٰ يشعر أنه يخاطبه. وبالتالي فإذا قرأ قارئٌ آياتٍ

---

١ راجع الآيات ١٧-٢٠ من سورة البقرة

تصف المنافقين وأحس بدايةً بانطباق الصفات عليه، ثم جاءت صفة في الآيات لا تنطبق، فلا ينبغي أن يُشعره ذلك أن الآيات لا تعنيه. بل له مِن الوعيد ومِن تحقُّق وصف النفاق فيه بقدر انطباق الآيات عليه، وله من الإيمان بقدر مخالفتها لحاله.

تجد مثل هذا الفهم في تعامل الصحابة مع الآيات التي تصف الكفار. ففي الأثر الصحيح أن سعدا رضي الله عنه استأذن علىٰ ابن عامر وتحته مرافق من حرير، فأَمَر بها فرُفعت، فدخل عليه وعليه مطرف خز[1]، فقال ابن عامر لسعد: استأذنتَ عليّ وتحتي مرافق من حرير فأمرتُ فرُفعت. فقال له سعد: «نِعم الرجل أنت يا ابن عامر إن لم تكن ممن قال الله عز وجل: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف]... واللهِ لأن أضطجع علىٰ جمر الغضا أحب إليّ من أن اضطجع عليها»[2].

فانظر كيف أن هذه الآية أُنزلت في الكفار ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]

---

١ نوع من الثياب المباحة

٢ أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٢٣٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٦٦٨٦) والحاكم في «المستدرك» (٣٦٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٦٠٨٠) وقال الحاكم: علىٰ شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي.

... لكن ذلك لم يمنع سعدًا رضي الله عنه من زجرِ ابن عامر بها لمشابهةٍ في جزئية من الآية، مع أن ابن عامر ليس من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وكذلك إيراد أهل السنة لقوله تعالىٰ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة المدثر] ...في معرض ترهيب المنتسبين إلىٰ الإسلام عن ترك الصلاة، مع أن في تتمة الصفات المذكورة في مجموعة هذه الآيات:

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، وهي صفة لا تنطبق علىٰ كثير من تاركي الصلاة. وذلك لأن الذم واقع علىٰ كل عمل من هذه الأعمال وليس علىٰ اجتماعها جميعها فقط.

ونورد هنا كلامًا لابن عاشور في تفسيره حول نفس المعنىٰ من أن المرء له من النص القرآني بقدر انطباقه عليه حتىٰ وإن كان مسلمًا وكان النص أصالةً في الكفار. والكلام فيه صعوبة، فلا عليك أيها القارئ من قراءته إذا اتضحت لك القاعدة مما سبق:

في معرض تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

قال ابن عاشور رحمه الله: «وقَدْ أخَذَ العُلَماءُ مِن هَذِهِ الآيَةِ أنَّ أهْلَ الإيمانِ الكامِلِ لا يُوادُّونَ مَن فِيهِ مَعْنًى مِن مُحادَّةِ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ بِخَرْقِ سِياجِ شَرِيعَتِهِ عَمْدًا، والِاسْتِخْفافِ بِحُرُماتِ الإسْلامِ، وهَؤُلاءِ

مِثْلُ أهْلِ الظُّلْمِ والعُدْوانِ في الأعْمالِ مِن كُلِّ ما يُؤْذِنُ بِقِلَّةِ اكْتِراثِ مُرْتَكِبِهِ بِالدِّينِ ويُنْبِئُ عَنْ ضعْفِ احْترامِهِ لِلدِّينِ مِثْلُ المُتَجاهِرِينَ بِالكَبائِرِ والفَواحِشِ السّاخِرِينَ مِنَ الزَّواجِرِ والمَواعِظِ، ومِثْلُ أهْلِ الزَّيْغِ والضَّلالِ في الِاعْتِقادِ مِمَّنْ يُؤْذَنُ حالُهم بِالإعْراضِ عَنْ أدِلَّةِ الِاعْتِقادِ الحَقِّ، وإيثارُ الهَوىٰ النَّفْسِيِّ والعَصَبِيَّةِ عَلىٰ أدِلَّةِ الِاعْتِقادِ الإسْلامِيِّ الحَقِّ. فَعَنِ الثَّوْرِيِّ أنَّهُ قالَ: كانُوا يَرَوْنَ تَنْزِيلَ هَذِهِ الآيَةِ عَلىٰ مَن يَصْحَبُ سَلاطِينَ الجَوْرِ. وعَنْ مالِكٍ: لا تُجالِسِ القَدَرِيَّةَ وعادِهِمْ في اللهِ لِقَوْلِهِ تَعالىٰ ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ﴾.

وقالَ فُقَهاؤُنا: يَجُوزُ أوْ يَجِبُ هُجْرانُ ذِي البِدْعَةِ الضّالَّةِ أوْ الِانْغِماسِ في الكَبائِرِ إذا لَمْ يَقْبَلِ المَوْعِظَةَ.

وهَذا كُلُّهُ مِن إعْطاءِ بَعْضِ أحْكامِ المَعْنىٰ الَّذِي فِيهِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ أوْ وعِيدٌ لِمَعْنًىٰ آخَرَ فِيهِ وصْفٌ مِن نَوْعِ المَعْنىٰ ذِي الحُكْمِ الثّابِتِ. وهَذا يَرْجِعُ إلىٰ أنْواعٍ مِنَ الشَّبَهِ في مَسالِكِ العِلَّةِ لِلْقِياسِ. فَإنَّ الأشْياءَ مُتَفاوِتَةٌ في الشَّبَهِ». اهـ

ويقصد ابن عاشور بالفقرة الأخيرة أن ما ذُكر هو أمثلة علىٰ الاستدلال بنصوص نزلت في صورة معينة، الاستدلال بها لِصُور أخرىٰ فيها شبه من الصورة الأصلية وإن كانت لا تجمع كل خصالها. ويدخل في هذا الاستدلال الوعيد بالعقوبة.

٢) قد يتقلب المرء بين الإيمان والنفاق

فكما أن الإيمان يزيد وينقص -وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة- فكذلك النفاق يزيد وينقص.

أ) فقد وصف الله تعالىٰ المنافقين بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ [النساء: ١٤٣].

قال ابن كثير في تفسيرها: (ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلىٰ هؤلاء وتارة يميل إلىٰ أولئك) اهـ.

ب) عن جبير بن نفير أنه سمع أبا الدرداء -وهو في آخر صلاته وقد فرغ من التشهد- يتعوذ بالله من النفاق، فأكثر التعوذ منه. فقال جبير: ومالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال:

(دعنا عنك، دعنا عنك! فوالله إن الرجل ليُقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيُخلع منه)[1]. وهذا من شدة حرصه رضي الله عنه علىٰ دينه وتخوفه من الفتنة.

٣) قد يقع المرء في نفاق وهو لا يعلم

فقد بوب البخاري في صحيحه باباً بعنوان: خوف المؤمن من أن

---

١ أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» ومن طريقه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وقال: «إسناده صحيح».

يحبط عمله وهو لا يشعر. وأورد تحته أثر ابن أبي مليكة عن خوف الصحابة علىٰ أنفسهم من النفاق كما سيأتي.

وقال ابن القيم: (وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر)[١]

٤) قد يظن المنافق أنه يحسن صنعًا

فكما أن مريض الفم لا يُحسن التذوق فإن مَن في قلبه مرض قد يرىٰ الفساد صلاحا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة]

والآيات الدالة علىٰ ان المرء قد يسيء وهو يحسب أنه محسن كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف]

وكقوله تعالىٰ:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]

وهنا سؤال يُشكل علىٰ كثيرين: ما دام الشخص قد لا يشعر

---

١ مدارج السالكين-الجزء الأول ص٣٤٧

بنفاقه، ويظن نفسه مهتدياً ويظن عمله حسناً، ولا يشعر أنه مفسد ولا يعلم أنه سفيه، فلماذا يذمه الله ويعاقبه؟ ما ذنبه؟

فنقول وبالله التوفيق: بداية التردي والضلال هي في اتباع الهوىٰ، بحيث أن الإنسان لا يتجرد لطلب الحق ومعرفة الحق. فاقتناعه بدين أو منهج مشروط بأن يكون هذا الدين أو المنهج محققا لأهوائه وما يرىٰ أن فيه مصلحته الدنيوية! يعني قد يكون الحق في دائرة لا يرىٰ صاحبنا أنها توافق هواه وتحقق «مصالحه»، وحينئذٍ فالبحث عن الحق في هذه الدائرة ليس مطروحاً للنقاش أصلاً! بل الحق «يجب» أن يكون في الدائرة التي توافق هواه. والذي يفعل هذا فإنه يعكس المسألة، إذْ ليست عنده اتباعاً للدليل أينما قاده، بل هو يحدد النتيجة التي «يجب» الوصول إليها ثم يُطَوِّع الأدلة لتوافق هذه النتيجة المحددة مسبقاً!

رأينا نموذجاً صارخاً من هذا في حديثنا عن خرافة التطور الصُّدفي التي يتبعها كثير من الأكاديميين والباحثين الغربيين، رأيناه في حلقة «من يدعم بقاء «نظرية» التطور؟»..تصور بروفيسوراً في «علم الأحياء التطوري» كانت رسالة الدكتوراه التي اكتسب بها لقب «Ph.D.» في «كيف تطورت حاسة الشم لدىٰ الإنسان؟»، ثم نَشَر عشرات الأبحاث في تفاصيل تطور القدرات والحواس لدىٰ الإنسان عن طريق الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي الأعمىٰ،

وحصل في سبيل ذلك علىٰ منح بمئات آلاف أو ملايين الدولارات، ويعمل تحت إشرافه أربعة أو خمسة دكاترة شباباً وفتيات من الـ «post-doc»، ويتجول في دول العالم ليعرض نتائج أبحاثه في المؤتمرات، ويحاضر في الجامعة ويأخذ راتباً عالياً ويسكن في فيلا فارهة لا زال يسدد أقساطها، ويتنقل في سيارته الفارهة ويعيش مع زوجته أو عشيقته ويقيم علاقات غير شرعية ويعيش منغمساً في الحرام..

تصور إذا قلت له: «إن كل حياتك هذه قائمة علىٰ خرافة لا علاقة لها بالعلم الحقيقي! كل شهاداتك، أبحاثك، درجاتك العلمية، أُبَّهَتك، سفراتك، مكانتك..كلها قائمة علىٰ وهمٍ تواصىٰ به أسلافك حتىٰ انتفش، كِذبة كبيرةٍ أُشربتموها في قلوبكم»..

كيف ستكون ردة فعله؟! إنه -في الأعم الأغلب- لن يقبل بطرح الأمر للنقاش أصلاً، ولن يقبل أن يفكر فيه أصلاً. بل سيعمل «block» -سَدَّاً وحَجباً- علىٰ مجرد التفكير في إمكانية صحة كلامك هذا! لن يُطرح الأمر علىٰ الطاولة للتفحص. لأن صحة كلامك تعني -في نظره- انهيار حياته وفقدان كل امتيازاته وشهواته. التسليم بصحة كلامك هذا يعني -بالنسبة له- أن يُنبذ من «المجتمع العلمي» ويُطرد منه..وتتراءىٰ له صورته مشرداً «Homeless» يستجدي الناس لقليل من المال يشتري به قنينة خمر!

لهذا، فكلامك «يجب» ألا يكون صحيحاً، والحق «يجب» أن

يكون في غير ما تقول! لأن تبِعات هذا الحق لا يمكن تحملها بالنسبة له. خاصة وأنه ليس من أهل التوكل علىٰ الله والاستعداد للتضحية في سبيل الله والدار الآخرة.

قد ترىٰ الواحد من هؤلاء مهذَّباً في النقاش، يتقبل الرأي الآخر، ويعترف ببعض خطئه إذا بدا له، بما يجعلك تظن أنه طالب حق في العموم، وأنه يتحلي بهذه الصفات في كل مقام، فتستغرب أن يكون من أهل العقوبة في الآخرة إذا مات علىٰ ما هو عليه. وغاب عنك أن هذه الصفات إنما يتحلىٰ بها ما لم تهدد منظومته الحياتية أو مصالحه الشخصية بالانهيار الكامل بعدما اعتادها.

مثل هذا يكون مُستعبَداً لهواه، لا يريد الحق ما دام خارج الدائرة التي توافق هواه.

وترىٰ هؤلاء إذا هدَأَتْ عن أحدهم قبضة الهوىٰ وتفكر في نفسه قليلاً بَدَتْ له لُمع الحق، وظهر له طريقه مناديـًا علىٰ فطرته. لكنه لا يلبث أن يُصِمَّ أذنيه ويُعمي عينيه ويغلف قلبه عن هذا النداء، فيُجازىٰ من جنس عمله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثِيَة].

هذا الختم علىٰ السمع والقلب والتغشية علىٰ البصر نتاجٌ لإعراضه عن الحق، فلم تكن ظلماً من الله سبحانه، لكن لأن هذا الإنسان عَبَدَ هواه وفضَّله علىٰ معرفة الحق.

وكلما تعامىٰ الإنسان زاده الله عمىً وابتعد عن التخلص من العبودية للهوىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام].

ومَن مَرِضَ قلبه باتباع الهوىٰ فلم يتخلص منه، ولم يسعَ في علاجه، بل كذب ليخبئه، وتعاطىٰ من الأعمال ما يزيده استفحالاً، كان جزاؤه أن يزيده الله مرضـًا: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البَقَرَة] .

فَلْيَحذر المرءُ أن يتعامىٰ عن حق ذاق طعمه، وإلا فإن المهمة تصعُب بعد ذلك!

فبداية المصيبة هي اتباع الهوىٰ:﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [مُحَمَّد].

لاحظ اقتران اتباع الهوىٰ بتزيين العمل السيئ...وهذا ما يحصل مع الكافر ومع المنافق ومع ضُلَّال المسلمين. فأحدهم يرىٰ عمله السيئ حسنـًا ويرىٰ أنه مهتدٍ ولا يشعر أنه مفسد، بل (قالوا إنما نحن مصلحون)، ولا يعلم أنه سفيه، بل يرىٰ نفسه رشيداً حكيمـًا. وقد يكون يحاول تحقيق هذه المعاني بالفعل «حُسن العمل والهداية والإصلاح والرُّشد» لكن بالمعنىٰ الذي يريده هو لها، وشريطةَ أن تكون في الدائرة التي توافق هواه وتحقق مصالحه! ومحاولة تحقيقها خارج هذه الدائرة ليس مطروحـًا أصلاً !

وعلىٰ ذلك فقِس كثيراً من الناس، كأصحاب المناصب الدينية من أهل الإسلام وأهل الأديان الأخرىٰ، الذين تعلقت دنياهم وميزاتهم بمنصبهم الديني، وكأتباع كثير من الأحزاب. وعلىٰ ضوء ذلك فافهم ردة الفعل العنيفة من سادات مكة حين جاء النبي ﷺ بما يهدد منظومة الشرك التي كانوا يتربحون منها.

وعلىٰ ضوء ذلك فافهم لماذا يَضِلُّ كثير من أصحاب العلم في المناظرات والخصومات، إذْ لا يكون لأحدهم هَمٌّ إلا إثبات صحة قوله، حيث أن صحة قول خصمه يترتب عليها -في نظره- سقوط هيبته وذهاب رياسته وانفضاض كثير من الأتباع عنه وفقدان ميزاته وعلو خصمه علىٰ حسابه. فالحق «يجب» ألا يكون فيما يقوله الخصم! فتراه يتأول ويتمسك بفهمه لنص شرعي، ويُعرِض عن نصوص وأدلة أخرىٰ، وهو في ذلك كله يقنع نفسه أنه مُصلِحٌ محسنٌ مهتدٍ، إذْ أن «مصلحة الدعوة والدين» هي -عنده- في بقاء هيبته وظهور غلَبته علىٰ خصمه من كل وجه وفي كل خلاف، وخدشُ شيء من ذلك هو خدش لمصلحة الدعوة والدين، زعموا!

وإذا فهمت هذا كله علمت لماذا يأمر الإسلام أهله بعصيان الهوىٰ، ومجاهدة النفس، ولماذا يأمرهم بالتخفف من الدنيا، وبالزهد فيها، ويحذرهم من الانغماس فيها والاستكثار من شهواتها..فإن ذلك مظنة التعمية عن الهدىٰ، والعبوديةِ للهوىٰ، وصعوبة التجرد للحق، ووقُوع الشحناء والتنازع بين الخلق. وعلمتَ لماذا كان الأنبياء يقول

أحدهم لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء] .

فلا تستغرب بعد هذا العنونة بـ«قد يظن المنافق أنه يحسن صنعًا»

ولا تستغرب من قول الله تعالىٰ في المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البَقَرَة]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البَقَرَة].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف]

وقوله تعالىٰ:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨].

وينضم إلىٰ ما سبق أسباب أخرىٰ تجعل الإنسان يسيء وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، كأن يكون معرضا عن محاولة معرفة الحق أصلاً. وفي كل حال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يُونُس] .

٥) خاف الصحابة علىٰ أنفسهم من النفاق

فإن كان هذا شأنَ الصحابة فما بالك بنا نحن؟!

أ) فقد روىٰ البخاري في باب الإيمان عن ابن أبي مليكة، وهو من التابعين، أنه قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه».

ب) وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: دُعِي عمر لجنازة، فخرج فيها أو يريدها، فتعلقت به فقلت: «اجلس يا أمير المؤمنين، فإنه من أولئك». فقال: «نشدتك بالله، أنا منهم؟» فقال حذيفة: «لا، ولا أبرئ أحدًا بعدك»[1].

فحذيفة رضي الله عنه كان أمين سر النبي ﷺ، أخبره نبينا بأسماء المنافقين. فلما رأىٰ عمر رضي الله عنه متوجهاً لجنازة رجل يظهر منه الإسلام أمسك به يمنعه مخبراً إياه أنه منهم. وكأن الموقف هز عمر فخشي علىٰ نفسه فاستحلف حذيفة: «نشدتك بالله، أنا منهم؟»..وقد

---

١ قال الهيثمي في المجمع: رواه البزار، ورجاله ثقات. وعزاه الدكتور عبد السلام آل عيسىٰ في رسالته: «دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب» لابن أبي شيبة في المصنف، والفسوي في «المعرفة» والتاريخ، ووكيع في «الزهد»، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق»، وقال: إسناده عند وكيع متصل ورجاله ثقات... فالأثر صحيح.

يستشكل البعض فيقول: كيف يسأل عمر رضي الله عنه هذا السؤال وهو من العشرة المبشرين بالجنة؟ لكن المرء قد يذهل عن بعض الحقائق أحيانـًا، فلا يستبعد أن يذهل عمر رضي الله عنه عن هذه البشارة النبوية بالجنة، والتي قدُم العهد بها، مع رهبة موقف الموت علىٰ النفاق أمام يقظة نفس الفاروق رضي الله عنه.

وكان جواب حذيفة: «لا، ولا أبرئ أحدًا بعدك»، أي: لا أفتح علىٰ نفسي هذا الباب-باب تزكية الناس بتبرئتهم من النفاق، فإنه خيرٌ لهم أن يظلوا علىٰ خوف منه وحذر.

عند سماع هذه الآثار فإننا نقف عادة عند الإعجاب بورع الصحابة واعتبار أنهم كانوا يخافون النفاق «زيادة عن اللزوم»! لكن ليس هذا ما ينبغي أن يُفهم منها؛ فالصحابة أفقه الأمة، ولذلك فهم يعطون الأمور أوزانها المناسبة ويخافون مما يجب الخوف منه. فخوفهم هذا يُشعر بخفاء النفاق إلىٰ الحد الذي يمكن معه أن يوجد في النفس ولا يشعر به صاحبه. فجدير بهم أن يخافوه، وجدير بنا كذلك. فكلما زاد إيمان المرء وفقهه بطبيعة النفاق زاد خوفه منه.

وكذلك كان التابعون رضي الله عنهم يخافون النفاق علىٰ أنفسهم.

ج) وعن الحسن البصري قال: (والله ما مضىٰ مؤمن ولا تقي إلا

يخاف النفاق، وما أمنه إلا منافق)[١].

د) وقال ابن سيرين -من أئمة التابعين رحمهم الله تعالىٰ-: «ما في القرآن آية أخوف عندي من هذه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]».

هـ) وقال أيوب السختياني: «كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها علىٰ نفسي».

و) وقال معاوية بن قرة: كان عمر يخشاه -يعني يخشىٰ النفاق- وآمنه أنا؟![٢]

فهذه حقائق خمسةٌ مهمةٌ عن طبيعة النفاق. أمَا وقد علمتها، فتعال نطلع علىٰ صفات المنافقين كما وردت في القرآن والسنة لنكون منها علىٰ حذر.

---

١ أخرجه الخلال في «السنة» (١٦٥٦) بإسناد صحيح إلىٰ الحسن.
٢ الآثار عن التابعين ذكرها ابن رجب في فتح الباري.

صفات المنافقين

١) الشك في الدين
٢) الإعراض عن الاحتكام إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ
٣) كراهية ما أنزل الله
٤) تولي المشركين
٥) تغيير الولاء بحسب ميزان القوىٰ
٦) الكذب
٧) كراهية التضحية في سبيل الله
٨) ثقل العبادات علىٰ النفس
٩) محبة أن يُمدح ويُحمد علىٰ أشياء لم يفعلها أصلا!
١٠) تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين
١١) الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين
١٢) الحرص علىٰ الدنيا والتسخط عند البلاء
١٣) الجبن والقبول بعيشة الذل
١٤) مداهنة السلاطين
١٥) قلة الأدب مع الله ومع رسوله
١٦) بُغض المؤمنين وتشويه سمعتهم
١٧) ابتغاء الفتنة
١٨) قسوة القلب تجاه القرآن

١٩) استصغار المعصية واستعظام الطاعة

٢٠) الإعراض عن التوبة

٢١) تعريض النفس للفتن

٢٢) الفجور عند الخصومة

٢٣) إخلاف عهد الله

٢٤) اللحن في القول

٢٥) الغفلة عن تأمُّل حِكَم الله من أقداره

٢٦) نسيان الله تعالىٰ

(١)
الشك في الدين

فالمنافق قد يشك في وجود الله تعالىٰ أو في نبوة رسوله ﷺ أو في صلاحية الإسلام للحياة.

وصِفَةُ الشك أهم صفات النفاق، وهي **سببٌ لصفاتٍ نفاقية أخرىٰ** كما سترىٰ.

الدليل علىٰ أن المنافق يشك في الدين:

قال الله تعالىٰ واصفا المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠]، وقد نقل ابن كثير عن عدد من الصحابة في معنىٰ كلمة (مرض) أنه الشك.

وقال تعالىٰ في آية السور المضروب بين المنافقين والمؤمنين: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤]... ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ فريْبُهم شكُّهم.

وقال رسول الله ﷺ موضحا خطورة هذا الشك: ((وثلاثة لا تسأل عنهم: رجل نازع الله عز وجل رداءه، فإن رداءه الكبرياء وإزاره

عِزَّهُ، ورجل شك في أمر الله، والقنوط من رحمة الله)) [١]. وقوله ((لا تسأل عنهم)) يعني أنهم هلكىٰ.

هذا الشك (الريب) سببٌ لصفاتٍ نفاقية أخرىٰ:

فالمنافقون لشكهم:

- رفضوا الاحتكام إلىٰ الله ورسوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور]، إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ [النور: ٥٠]. فهم رفضوا الاحتكام إلىٰ الله ورسوله نتيجةً لريبهم (شكهم).

- نكصوا عن الجهاد: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]

- والَوُا الكفار: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]

- تكاسلوا عن الطاعات: قال عليه الصلاة والسلام: (ولو يعلمون ما فيهما)-أي: صلاتي الفجر والعشاء في المسجد- (لأتوهما ولو حبواً)[٢] لكن لشكهم في وجود هذا الجزاء أصلا تكاسلوا.

وسوء عمل المنافق عمومـًا أهم منابعه الشك في الدين. قال

---

١ أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٤٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٥٩) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد وفي السلسلة الصحيحة (٢/ ٤١) والهيتمي المكي في الزواجر (٨٣/ ٢).

٢ البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١).

الحسن البصري فِي قَوْلِهِ عز وجل: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ أَسَاءَ الظَّنَّ فَأَسَاءَ الْعَمَلَ»[1].

و﴿ظَنَنتُ﴾ في قول المؤمن (إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه) هو بمعنىٰ اليقين كما هو في كثير من المواضع في القرآن. فالمؤمن أيقن بالحساب فأحسن العمل، والمنافق شك فأساء العمل.

الشك يجعل حسابات المنافق أرضية:

فشكه يُضعف عنده التوكل علىٰ الله وانتظارَ المثوبة والعقوبة الأُخرويين. فيغش ويرتشي ويظلم ويأكل المال الحرام ويوالي الأقوياء وإن كانوا علىٰ باطل ويفعل ما يرىٰ فيه تلبية لشهواته وأمانًا لحياته حَلَّ أم حَرُم.

سيقول قائل: فما ذنب المنافق إذاً؟

إن الناس لا يجدون صعوبة في الاقتناع بأن منكِر الإسلام وجاحده كبراً يستحق العقوبة. لكن كثيرين يتساءلون: إنْ كان إنسانٌ قد استعرض أدلة الإسلام وفكر فيه فلم يقتنع بوجود الله تعالىٰ أو

---

١ أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٩٢٥)، وأحمد في «الزهد» (١٦٤٧)، والفريابي في «ضفة النفاق» (٩٠)، وأبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» (٢/ ١٤٤) بأسانيد بعضها صحيح إلىٰ الحسن البصري.

وحدانيته أو نبوة رسوله ﷺ، أو شك في صحة الإسلام، مع أنه «حاول أن يكون منصفـًا»، فما ذنبه؟

وهنا جواب مهم جداً: وهو أن هذا السؤال ينضوي علىٰ خطأ مخالف للعقل وللأدلة، ألا وهو افتراض أن إنسانـًا قد يستعرض أدلة الإسلام طالبـًا للحق فلا يقتنع بصحته.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البَقَرَة].

فالذي يكفر بآيات الله تعالىٰ فليس ذلك لنقصِ حجةٍ في هذه الآيات، وإنما لأن الكافر بها دأبه الفسق، أي الخروج عن طريق الهداية والحق، إما بعدم الالتفات إليه أصلاً، أو لأنه لا ينظر في الآيات نظراً صحيحـًا متجرداً طالبـًا للحق.

فالله تعالىٰ قد أعطىٰ كل إنسان مكلف قلبا سليما وعقلا راشدا، فلا بد أن يستحسن الإسلام بفطرته وتظهر له حجته بعقله. فأيُّ نظرٍ متجردٍ هذا الذي لا يقنعه قرآنٌ ينطبق عليه وصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وأي نظرٍ متجرد هذا الذي لا يقنعُهُ قرآنٌ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ

إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النِّسَاء] .

قد تقول: (نعم، ولكن في المقابل في القرآن كذا وكذا من آيات القتال أو تعدد الزوجات أو غيرها).

فنقول: إنما في هذه الآيات مخالفة لهوىٰ الإنسان وإدراكِه المشوه بعبث الإعلام والصور النمطية. ومع ذلك فالذي يترك كل ما في القرآن مما يخاطب العقل والفطرة بلا حُجُب، ويتعلق بهذه الأمثلة فإنما هو متبع لهواه أراد أن يتعلق بشيء يبرر به إعراضه عن استيفاء تدبر أدلة الإسلام أو جحودَه لها.

فعلىٰ كل حال فإن الشاك في صحة الإسلام غير معذور. بل بليته في اتباع الهوىٰ كما فصلنا في المقدمة تحت عنوان «٤) قد يظن المنافق أنه يحسن صنعًا». فاتباع الهوىٰ يحرم صاحبه من استيفاء النظر في أدلة الإسلام نظراً صادقًا متجرداً صحيحًا. فشكه أو عدم اقتناعه ناتجٌ عن أنه لم يستوف النظر بشروطه، أي لم ينظر نظراً صحيحًا. فهو حتىٰ وإن لم يكفر كفر جحود فإنه يكفر كفر إعراض عن التدبر الصحيح للأدلة بما أدىٰ به إلىٰ الشك.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ [القَصَص].

فالذي لا ينقاد للإسلام فهو إما محجوب باتباع هواه عن اليقين بصحة الإسلام، أو محجوب باتباع هواه عن الانقياد للإسلام جحوداً بعدما أيقن بصحته. وهو علىٰ الحالين ظالم مستحق للعقوبة.

وبهذا كله تعلم أن سؤال: «ما ذنب المنافق إذا شك في الإسلام مع أنه استعرض أدلته بتجرد» سؤال باطل. قال ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»: «من تدبر القرآن طالبًا للهدىٰ منه تبين له طريق الحق».

في المقابل: من تدبر القرآن متبعًا لهواه لم يتبين له طريق الحق.

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»: «وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول - ﷺ - جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقىٰ معه شك، لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها فإن دلالتها علىٰ الصدق كدلالة الشمس علىٰ النهار».

فلا يمكن أن يستعرض امرؤٌ أدلةَ الإسلام التي تقوم بها الحجة استعراضًا متجرداً صادقًا ثم لا يقتنع بها. وإنما عدم إقراره ناتج عن عدم التجرد وعن اتباع الهوىٰ، وليس لأن الحجة لم تقم عليه.

فالعيب ليس في دين الله ولا عن نقص حجة فيه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والله تعالىٰ قد فطر الناس جميعا علىٰ الانجذاب لدينه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

وقال رسول الله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1].

إنما العيب في القلب الذي لا ينقاد لدين الله. وحديثنا هنا هو عن عدم الانقياد للإسلام جملة. أما أن يجد المرء في نفسه شيئا من بعض تفاصيل الشريعة، فهذا سنتكلم عنه تحت صفة «كراهية ما أنزل الله».

فكيف إذا آمن الإنسان ثم خلعه اتباع هواه من هذا الإيمان؟! لا تعجب إذا طُبع علىٰ قلبه فأصبح يشك في كبرىٰ الحقائق. قال تعالىٰ في المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]

وقال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

فنعوذ بالله من اتباع الهوىٰ كيف يُرْدِي صاحبه في المهالك!

---

١ أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

الذنوب تُمرض القلب فتزيد الهوىٰ تَمَكُّنًا منه، والهوىٰ يقود إلىٰ الشك:

وهذه نقولها للمسلمين الذين يشتكون من الشك في الدين وقلة اليقين وعدم القدرة علىٰ تمييز الحق في زمن الاختلاف. احذر الذنوب فإنها تُمْرِض القلب، فتُمكِّن الهوىٰ منه، حتىٰ قد يحجب عن تمييز الحق والاهتداء بأدلة الإسلام ويشك في دين الله فيقع في النفاق.

فالقلب يَفسد بالمعاصي كما تفسد الحواس بتعريضها لما يؤذيها:

ومن يك ذا فم مر مريض يجِدْ مرا به الماء الزلالا

فمرض القلب إذاً مكتَسَب بالمعاصي. والأدلة علىٰ ذلك في القرآن والسنة كثيرة جداً، منها قول الله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]

أي ردهم وأوقعهم في الكفر بسبب معاصيهم.

وقال في بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف]

الحق هو من العلم..والمرء قد ينسىٰ العلم بالذنب.. يُذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنِّي لأحسبُ الرجلَ يَنسىٰ العلمَ كما تعلَّمَهُ للخطيئةِ يَعملُها»[1].

---

١ صححه الهيتمي المكي في «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٩٤/ ١).

وقال ابن تيمية رحمه الله: «من الذنوب ما يكون سببًا لخفاء العلم النافع أو بعضه، بل يكون سببًا لنسيان ما علم»[١].

ومن الأدلة علىٰ أن مرض القلب مكتَسَب بالمعاصي قول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]

أي أن بناء المنافقين لمسجد الضرار أورثهم شكا ونفاقا في قلوبهم. ولهذا فعلىٰ المرء أن يحذر من فعلِ معصيةٍ قد تزيد مرض قلبه وشكَّه ما دامت آثارها قائمة مع أن صاحبها قد يكون نسيها فلا ينتبه إلىٰ هذا المصدر من مصادر مرض قلبه، أو يستهين بها ويعتبر أن مجرد إقلاعه عنها كافٍ في ذهاب آثارها وإن لم يصحح ما أفسده، كمن ينشر منشوراً علىٰ مواقع التواصل فيه نصرةٌ لباطل أو تنفير عن حقّ، أو يتناقل مقاطع وصُوراً لا أخلاقية تفتن شباب المسلمين.. فمن يفعل ذلك فهو عرضة لأنْ تعمل معصيته في قلبه أثر سوء من شك ونفاق ما دامت آثارها باقية.. حتىٰ ولو نسي صاحبها أنه قام بهذه «السيئة الجارية».. فَلْيحذر العاقلون!

ولذلك علمنا نبينا ﷺ الحساسية تجاه الذنوب وصدق الاستغفار

---

١ مجموع الفتاوىٰ (٩٦/ ٧).

منها. فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يقولُ في سُجُودِهِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ وعَلانِيَتَهُ وسِرَّهُ)[١].

ومن أدلة السنة النبوية علىٰ أن المعاصي تورث النفاق قول النبي ﷺ: ((من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله علىٰ قلبه وجعل قلبه قلب منافق))[٢].

ومن الأدلة قول النبي ﷺ: ((تُعْرَضُ الفِتَنُ علَىٰ القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّىٰ تَصِيرَ علَىٰ قَلْبَيْنِ: علَىٰ أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ))[٣].

...وهو حديث عظيم المعنىٰ يتطلب منا تأمُّلاً:

- (تُعرَضُ الفتنُ علَىٰ القلوبِ كالحصيرِ عودًا عودًا) أي متشابكة

---

١ مسلم (٤٨٣).

٢ أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، وأبو يعلىٰ الموصلي في مسنده والبيهقي في شعاب الإيمان، وقال ابن حجر: «رجاله ثقات»، وصححه ابن المنذر وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٣٥).

٣ صحيح مسلم-كتاب الإيمان برقم ٣٨٦

كثيرة تلو بعضها كتشابك الحصير.

- (فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ سَوداءُ) أي أن القلب الذي يقبلها ولا يدافعها تُلقَىٰ فيه بقعة سوداء.

- (وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ بَيضاءُ) الذي يقاومها ويصبر عنها تلقىٰ فيه بقعة بيضاء.

- (حتَّىٰ تصيرَ علَىٰ قلبَينِ: علَىٰ أبيضَ مِثلِ الصَّفا فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السَّمواتُ والأرضُ) قلب المتصبر عن الفتن يصبح أبيض شيئا فشيئا، ببياض الصفا، أي الحجر الأملس الذي لا يتعلق به شيء[1]، فتصبح عنده مناعة ضد الفتن التي ستعرض له فيما بعد حتىٰ وإن كانت أكبر من الأولىٰ.

(والآخرُ أسوَدُ مُربادًّا كالكوزِ مُجَخِّيًا) أسود اللون كالجرة المقلوبة التي مهما صبَبْتَ الماء عليها فلن يدخلها الماء. وكذلك هذا لا تنفعه الآيات والأحاديث والعبر والعظات.

- (لا يعرِفُ معروفًا ولا ينكرُ مُنكرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هواهُ) يصبح محركه في حياته ودافعه إلىٰ الفعل أو الترك ومقياسه في الحكم علىٰ الأشياء: الهوىٰ فقط!

ولاحظ كيف أن السقوط في الفتن أدىٰ إلىٰ أن يُشربَ القلب الهوىٰ، وهذا يعود بنا إلىٰ العنوان: «الذنوب تُمرض القلب فتزيد

---

١ شرح النووي علىٰ مسلم.

الهوىٰ تَـمَكُّنـًا منه، والهوىٰ يقود إلىٰ الشك».

فأنت إذا عُرِضَتْ عليك المعاصي فتذكر أن موقفك منها يحدد: نكتة بيضاء تحصن قلبك من الفتن أو سوداء تمرضه وتجعله شيئـًا فشيئـًا مرتعـًا للشك والنفاق!

ومن الأدلة علىٰ أن المعصية تورث مرض القلب قول نبينا عليه الصلاة والسلام: (إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةٌ نُكِتتْ في قلبِهِ نُكتةً سوداءَ فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ سُقلَ قلبهُ وإن عادَ زيدَ فيها حتىٰ تعلو قلبهُ وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾)[1].

وهذه الآيات والأحاديث تدل علىٰ أن فتنة الشهوة تقود إلىٰ فتنة الشبهة، وأن المعاصي تخدش العقيدة. فلا يغترن امرؤٌ بقوله أنّه وإن كان مقيمـًا علىٰ معصيةٍ إلا أن إيمانه في قلبه كامل. ومن ظن أن بإمكانه الإسراف علىٰ نفسه من المعاصي دون أن يتأثر إيمانه بآثارها فقد وقع

---

١ رواه أحمد في «مسنده» (٧٩٥٢)، وابن ماجه في «سننه» (٤٢٤٤)، والترمذي في «جامعه» (٣٣٣٤) – وقال: حسن صحيح – وابن حبان في «صحيحه» (٩٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٠٨) وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني

بظنه هذا في كبيرة، وهي الأمن من مكر الله تعالىٰ القائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]

وشر فتنة أن تمرض قلوبهم لمخالفتهم أمر الله ورسوله فيصيبها كفر أو نفاق.

فالأمن من مكر الله هو: أن تعمل السيئات وأنت لا تخاف علىٰ نفسك أن يعاقبك الله عليها في الدنيا أو الآخرة، ولا من أن يطمس الله علىٰ قلبك بشؤم هذه المعصية، كمن ترك عينيه ترتعان فيما حرم الله وهو يقول: «هذا لن يؤثر علىٰ إيماني في قلبي». ومثل هذا قد انطبق عليه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (أكبَرُ الكبائرِ الإشراكُ باللهِ والإياسُ مِن رَوحِ اللهِ والقُنوطُ مِن رَحمةِ اللهِ والأمنُ من مكرِ اللهِ)[1].

إن العاصي يُحَجِّم نداء الإيمان في قلبه ثلاث مرات: قبل ممارسة المعصية ليُقبل عليها، ثم أثناء ممارستها ليستمتع بها، ثم بعد الانتهاء منها ليتهرب من الندم علىٰ فعلها. عملية «التحجيم» هذه إذا كَثُرت قمعت أثرَ إيمانِ قلبه وأورثت فيه مرضا وشكا.

كما أن العاصي إذا تأخرت عقوبته فقد يحمد الله تعالىٰ علىٰ

---

١ قال ابن كثير في (تفسير القرآن): رواه (يعني الطبري) من طرق عدة عن أبي الطفيل عن ابن مسعود وهو صحيح إليه بلا شك.

لطفه بداية. لكن إذا فعل معصيته مرارا ولم يَرَ عقوبة فقد يأمن من مكر الله ويشك في وجود الثواب والعقاب أصلاً! إذ يغفل عن حقيقة أن الدنيا دار بلاء لا دار جزاء. بالإضافة إلىٰ أنه يكون يعاقَب أصلاً وهو لا يدري. فأي عقوبة أشد من مرض القلب والحرمان من الطاعة بالمعاصي.

لما اجترأ يهود علىٰ الدعاء علىٰ النبي ﷺ بقولهم (السام عليك) ولم يُعاجَلوا بعقوبة أمِنوا من مكر الله بهم وعقوبته لهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]

فمحصل المسألة أن المعصية تقود إلىٰ مرض القلب، والذي بدوره يمكن الهوىٰ من القلب. فإذا تمكن الهوىٰ فقد يقود صاحبه إلىٰ الشك في الدين، والشك بدوره يقود إلىٰ الصفات النفاقية الأخرىٰ.

وسنبرهن علىٰ هذا التسلسل في مواضع أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

في المقابل تقود الطاعة إلىٰ اليقين:

فصاحب الطاعة يستجمع إيمانه ليدفعه إلىٰ فعل الطاعة قبل فعلها ثم ليستمر عليها أثناء أدائها ثم ليفرح بها بعد الانتهاء منها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّـهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

فهم ينفقون في سبيل الله طالبين بذلك أن يُثَبِّتَ الله أنفسهم علىٰ الإيمان.[١]

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]

وزيادة الإيمان واليقين هي من ثواب الله العاجل للمؤمن علىٰ طاعته: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وسائل طرد الشك:

فمن وجد في قلبه شكًا في الدين فعليه أولا بالدعاء. قال رسول الله ﷺ: (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله ﷺ: (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك)[٢].

---

١ وهذا أحد القولين في تفسير الآية من كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور

٢ مسلم (٢٦٥٤).

وفي الحديث القدسي ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهْدوني أَهدِكم))[١] .

وعليه أن يستحضر الارتباط بين المعصية وضعف اليقين، والشهوات والشبهات. ثم عليه أن يطلب العلم النافع. فعن ابن الديلمي قال: (وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد عليّ ديني وأمري. فأتيت أبي بن كعب فقلت أبا المنذر إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت علىٰ ديني وأمري. فحدِّثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به)[٢].

فابن الديلمي لم يترك هذا الخاطر يعتمل في قلبه، بل سارع إلىٰ صحابي ليزيل شبهته بنور وحيٍ سمعه من رسول الله ﷺ.

وننصح بمتابعة سلسلة (رحلة اليقين) للعبد الفقير إياد قنيبي، ففيها تثبيت لليقين ومنهجية علمية للتخلص من الشبهات وخلع جذورها، وقد صرح كثير من الإخوة والأخوات بعودتهم للإسلام بعد مشاهدتهم للسلسلة من بعد ما كانت قد عصفت بهم الشكوك والشبهات، والحمد لله أولا وآخراً.

وكذلك ننصح بمتابعة (سلسلة المرأة) للعبد الفقير، ففيها معالجة لكثير من الشكوك والشبهات التي تثار حول موضوع المرأة في الإسلام، وكان لها أثر طيب كذلك.

---

١ مسلم (٢٥٧٧).

٢ رواه أحمد (٢١٥٨٩)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجة (٧٧)، وصححه الألباني.

ليست الخواطر من الشك القادح في الإيمان، فالكلام المتقدم إنما هو عن الشك الذي يستقر في النفس، لا عن الخواطر الشيطانية التي يستعين صاحبها بالله تعالىٰ ليدفعها. قال الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

وجاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به». قال: (وقد وجدتموه؟) قالوا: نعم. قال: (ذاك صريح الإيمان)[١]

وجاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: «إني أُحدث نفسي بالأمر لأن أكون حمَمة أحب إليّ من أن أتكلم به»..أي أن هذا الصحابي يفضل أن يحترق علىٰ أن يبوح بما يحيك في صدره من وسوسة. فقال رسول الله ﷺ: (الحمد لله الذي رد أمره إلىٰ الوسوسة)[٢]

.. يعني جعل قصارىٰ ما يمكن للشيطان فعله مع هذا العبد أن يوسوس له.

---

١ مسلم (١٣٢).

٢ أخرجه أحمد (٣١٦١)، وأبو داود (٥١١٢)، والنسائي (١٠٤٣٥)، وابن حبان (١٤٧)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١١/ ٩٨)، وقال الوادعي في «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» (٣٢٦): صحيح علىٰ شرط الشيخين.

اليقين علىٰ درجات:

اليقين علىٰ درجاتٍ وليس درجة واحدة. نقول ذلك حتىٰ لا يتهم أحدٌ نفسه أو غيره بالنفاق إذا لم يصل في اليقين درجة الكمال.

لكن كيف نقول أن اليقين علىٰ درجات؟ أَلَيْس الإنسان إما مصدقًا أو شاكًّا أو مُكذِّبًا؟ أَلَيْس اليقين تصديقًا جازمًا لا يخالطه شكٌّ؟

بلىٰ ولكن هذا التصديق -بِدَوْره- علىٰ درجات؛ أنتَ حين تُصدِّق بوجود الله تصديقًا جازمًا حاسمًا لا يخالطه شكٌّ، فقد اجتزْت الخطَّ المطلوب، أي أفْلَتَّ من جاذبيَّة الشُّكوك والتَّردُّد. لكنَّ النَّاس بعدَ ذلك يتفاوتون في التَّحليق.

ادْخُل حديقةً وانظُر إلىٰ أشجارها، كلُّها أشجارٌ حيَّةٌ قائمةٌ علىٰ سِيقانِها..لكن هل هي سواء؟ لا؛ ستجِدُ شجرةً قائمةً علىٰ جذورٍ قريبةٍ من سطح الأرض، فيَسْهل اجتثاثها، في حين ستجِدُ أخرىٰ، عميقة الجذور، يصعب اجتثاثها، وستجد أخرىٰ أكثر جذورًا وأعمق؛ فلا مطْمَع في اجتثاثها أبدًا، قد تُقْطَع، تُقْتَل، لكنَّها لا تُجتثُّ، وكذلك اليقين في النُّفوس.

قد تكون مجموعة من المسلمين كلُّهم عندَهم يقينٌ حيٌّ، كما هذه الأشجار حيَّة، لكن شتَّان بين ثباتها إذا تعرَّضت للفِتَن.

أيضًا هذه الأشجار هي ليست سواءً في إثمارها أبدًا؛ فمنها ما لا ينفع إلا نفسه، ومنها ما يتساقط ثمره علىٰ النَّاس ويسْتظِلُّون بظِلِّها. وكذلك اليقين..ولذلك، فحتَّىٰ صاحب اليقين بحاجةٍ إلىٰ سَقْي شجرة يقينه؛ لِئَلَّا تجف وتموت، بل تنمو وتُثمِر، وتنفع وتضرب جذورها عميقةً في الأرض.

(٢)
الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ

أسبابه الحقيقية:

يظهر هنا الارتباط الذي أصَّلْنا له في صفة «الشّك في الدين». فهذا الإعراض ناتج عن الشك، والشك ناتج عن اتباع الهوىٰ، والهوىٰ يستحكم في القلب المريض الذي تُمْرِضه الذنوب.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]

فعدم اليقين -أي الشك- يجعل أصحابه يبغون حكم الجاهلية.

وقال تعالىٰ واصفاً المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور]

فإعراضهم عن الاحتكام إلىٰ الله ورسوله ناتج عن الرَّيب (الشك)، والذي له ارتباط بمرض القلب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ [المائدة: ٤٩].

فبذنوبهم التي اقترفوها واتباعهم أهواءَهم أمرض الله قلوبهم حتىٰ انصرفوا عن الاحتكام إلىٰ ما أنزله سبحانه وإلىٰ رسوله ﷺ.

فَشَكُّ المنافق في الدين يجعل حساباته مادية، فلا ينظر إلىٰ المصلحة الأخروية في إقامة أحكام الله تعالىٰ، ولا يوقن أن صلاح دنياه كذلك هو بالتزام أمر الله تعالىٰ وأمر رسوله ﷺ.

أعذارهم في هذا الإعراض:

قال الله تعالىٰ في سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء]

قال ابن كثير: (أي: يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلىٰ غيرك، وتحاكُمِنا إلىٰ عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة

والمصانعة، لا اعتقاداً مِنَّا صحة تلك الحكومة)[١] .

فهم قد يدَّعُون احترام شريعة الله وأنهم ما يحتكمون إلىٰ الشرائع الوضعية والأجنبية إلا لتجنُّب شر الأمم (المداراة) ولتحقيق المصلحة للناس (الإحسان).

قال ابن تيمية: (فإذا كان النفاق يثبتُ، ويزولُ الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلىٰ غيره، **مع أن هذا تركٌ محض وقد يكون سببه قوة الشهوة**، فكيف بالتنقص والسب ونحوه)[٢] .وهو بهذا يُبين أن النفاق يثبت بمجرد ترك الاحتكام إلىٰ الله ورسوله، حتىٰ وإن كان المحتكم مقتنعاً بصحة الدين، وحتىٰ لو كان الدافع الشهوة واتباع الهوىٰ، لا التكذيب والجحد للدين.

قال الله تعالىٰ بعد هذه الآيات:

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّـهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]

فعجبا ممن يتظاهر بتبجيل النبي ﷺ ثم يُعْرِضُ عن أحكامه المفصلة في مناحي الحياة كلها...وهو ﷺ ما أُرسل إلا ليطاع، فما

---

١ تفسير ابن كثير

٢ الصارم المسلول

الفائدة في دعوىٰ تبجيله مع الإعراض عن شريعته؟!

قال تعالىٰ بعدها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]

ففي الآية ثلاثة شروط لا إيمان بغياب أحدها. ولاحظ قوله تعالىٰ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ..فالمؤمن صدره سليم لحكم الله ورسوله ﷺ.

بينما المنافق يكره أحكام الله ورسوله ﷺ أو بعضها، وهي الصفة التالية التي سنناقشها من صفات المنافقين.

المنافق يحتكم إلىٰ ما وافق هواه من شرع الله:

ويخادع الله تعالىٰ والمسلمين، بل وقد يخادع نفسه، بأنه يمتثل لـ«بعض» الشريعة. قال الله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]

إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾

قال ابن كثير: (قالوا فيما بينهم: تعالوا حتىٰ نتحاكم إليه-أي إلىٰ

رسول الله ﷺ في شأن اثنين زَنَيا- فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، **واجعلوه حجة بينكم وبين الله**، ويكون نبي من الأنبياء قد حكم بينكم بذلك. **وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك**) اهـ.

هم بذلك ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٩]

ثم قال تعالىٰ:

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [المائدة: ٤١] ...فـ«انتقائيتهم» هذه من الدين هي بسبب مرض قلوبهم.

إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴾ [المائدة-٤٢] ... فمرض قلوبهم نتج عن ذنوبهم، من سماع كثيرٍ للباطل مع قبول له وتعاطي الرشوة والمال الحرام وغير ذلك.

وقال تعالىٰ أيضاً واصفاً هذه «الانتقائية» عند المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور].

ومنهم من ينتقون من النصوص الدينية ليستغلوها لمصلحتهم ويُطَوعوا الناس بها ثم يُعرضون عما يخالف هواهم. وهم بذلك ما أقاموا الدين في حياتهم ولا حتىٰ جزئياً، لأن هذا الجزء إنما التزموه

اتباعـًا لأهوائهم، لا استسلاما وإذعانا لله تعالىٰ، فبطلت بذلك نياتهم.

قال سيد قطب رحمه الله: (إن «دين الله» لا يصلح خادمـًا يلبس منطقة الخدم، ويقف بحضرة «أسياده»، ويوجهونه حيث يريدون! يطردونه من حضرتهم فينصرف وهو يُقَبل الأرض بين أيديهم.. ثم يقف وراء الباب- في شارة الخدم- رهن الإشارة! ويستدعونه للخدمة، فيُقَبِّل الأرض بين أيديهم، وينحني قائلاً: لبيك يا مولاي! كما يفعل من يسمونهم «رجال الدين»! كلا! إن «دين الله» لا يرضىٰ إلا أن يكون سيداً مهيمنـًا قويـًا متصرفـًا عزيزاً كريمـًا، حاكمـًا لا محكومـًا، قائداً لا مقوداً)[1].

ولست أنسىٰ كلمة رجل أمريكي قال لي مدافعا عن ديمقراطيتهم ما تَرْجَمَتُه: (أعتقد أن علينا أن نسمح لله بالتدخل في حياتنا بالمقدار الذي نريد فحسب)!!

﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ولعل بعض «المنتقين» حين قرأ كلمة الأمريكي هذه استبشعها مع أنها ما هي إلا تعبير بلسان المقال عن حال «المنتقين».

في المقابل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

---

١ المستقبل لهذا الدين

لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُوا سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، سمعنا وأطعنا دون لجوء إلىٰ مرجعية أخرىٰ، وذلك في كل مقام، مع كل آية وتشريع.

قارن ذلك بمرض النزعة النسوية التي تفصيل الدين وأحكامه علىٰ قياس القيم والمعايير الغربية المنحرفة المتغيرة. وراجع في علاج هذا المرض سلسلتنا المرئية بعنوان «سلسلة المرأة».

أشكال لا يُنتبه لها من الإعراض عن الاحتكام إلىٰ الشرع

عندما يقع خلاف بين أفراد الأسرة يلجأ بعضهم إلىٰ مؤسسات محلية في بلاد المسلمين تُنَفّذ أجندات المنظمات الدولية وتتبع لها في تعريف حقوق كل فرد وواجباته. هذه المنظمات تسعىٰ بشكل دؤوب إلىٰ تفتيت كيان الأسرة وطمس فطرة أبنائها كما بينا بالتفصيل في سلسلة «الحرب علىٰ الفطرة»[1]، وتعرف الحقوق والواجبات بتعريفات معارضة للإسلام ومواثيقها تمثل «دينـًا» بديلاً عن الإسلام بمعنىٰ الكلمة، دينـًا يبيح ما حرم الله كالزنا والشذوذ، ويحرم ما أحل الله، كالزواج دون سن الثامنة عشرة، حتىٰ وإن كان الشاب أو البنت

١ موجودة ضمن قائمة تشغيل بهذا الاسم علىٰ القناة الرسمية للدكتور إياد قنيبي علىٰ يوتويب وكذلك علىٰ تطبيق الفرقان.

مؤهلَين له. وكذلك تشريعاتها فيما يتعلق بالمرأة والقوامة والولاية وغيرها من المفاهيم.

فعندما ينشب خلاف بين أفراد العائلة فيلجأ بعضهم إلىٰ هذه المؤسسات، سواء كان ابنًا أو بنتًا أو زوجةً أو أختًا[1]، لتتدخل في الأسرة وتُمَكِّن الفرد الذي لجأ إليها من تحصيل ما ليس بحق له شرعًا، فإن هذا الفرد يكون قد أعرض عن شريعة الله تعالىٰ واحتكم إلىٰ ما يعارضها. فلينتبه لذلك ولا تأخذه أو تأخذها العزة بالإثم.

فعلىٰ كل مسلم أن ينظر: هل هذا الذي يريد تحصيله في الخلافات هو حق منحه الشرع إياه بالفعل؟ أم أنه ليس منحقه شرعًا وإنما من حقه حسب هؤلاء الذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله؟! فإن كان كذلك فكيف يطالب به بل ويستعين بهذه المؤسسات علىٰ انتزاعه من أفراد الأسرة الآخرين؟

وإن كان هذا الذي يريد تحصيله في الخلافات هو حق شرعيٌّ له يحرمه منه أحد أفراد الأسرة، ولا تطيب نفسه بالتخلي عنه، فإن عليه أن يلجأ إلىٰ الطرق المشروعة في تحصيله، ويشمل ذلك التحكيم

---

١ لم نذكر الزوج ولأخ هنا لأن المنظمات الدولية والمؤسسات التي تنفذ أجنداتها تستهدف في عامة برامجها المرأة والطفل واليافع، من خلال استثارة العطف عليهم، وتعمَد إلىٰ تمثيل دور الوصي عليهم بدل الأوصياء والأولياء القوامين الحقيقيين كالآباء. وإلا فمعلوم أن الظلم قد يقع من أي فرد من أفراد الأسرة علىٰ الآخر.

واللجوء إلىٰ الوجهاء. لا أن يلجأ إلىٰ هذه المؤسسات التي لا هم لها في الإصلاح ولا مرجعيتها الشريعة، وإنما همها أن تقدم التقارير للمنظمات الدولية تبين فيها حالات «النجاح» في تطبيق المواثيق والمعاهدات المخالفة للشريعة، وإنفاذ أجندات تفتيت الأُسَر المسلمة وبث روح الفردانية والأنانية في المجتمع.

وهذا بابٌ من الشر كبير فُتح علىٰ مصراعيه حديثا في بلاد المسلمين، مع ازدياد نشاط هذه المؤسسات وتحجيم بنودٍ في «قانون الأحوال الشخصية» موافقةٍ لبعض أحكام الشريعة الإسلامية.

والكلام ذاته يقال في الخلافات التي تنشأ بين الزوج وأهل الزوجة أو العكس.

فلْيَتَّقِ المسلمون ربهم في ذلك، رجالاً ونساء، شباباً وفتياتٍ، صغاراً وكباراً. ولْيتذكر أطفال المسلمين واليافعون واليافعات ذلك، ولا يعرضوا أنفسهم لأن يقعوا في هذه الخصلة من أخص خصال النفاق وهم لا يشعرون.

(٣)
كراهية ما أنزل الله

فمرض قلب المنافق يجعله يكره ما أنزل الله. فالقلب المريض يرىٰ الحسَن قبيحًا والقبيح حسنًا.

قال الله تعالىٰ في الكافرين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد]

وقال في المنافقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ [محمد]

نقل القرطبي عن ابن عباس والضحاك والسدي أن هذه الآيات هي في المنافقين.

فالمنافقون لما خالطوا الكافرين الذين كرهوا ما نزَّل الله، ووعدوهم بالطاعة في بعض الأمر، انتقل مرض كراهية الوحي إلىٰ قلوبهم المريضة.

قال الله تعالىٰ بعدها: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد]

لاحظ كيف أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ فانتقلت إليهم عدوىٰ الكراهية ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، أي كرهوا ما يقربهم من رضا الله تعالىٰ، ومن ذلك شريعته وما أنزل سبحانه، فاستحقوا عند وفاتهم أن تَضرب الملائكة وجوههم التي أقبلوا بها علىٰ الكارهين وأدبارهم التي استدبروا بها كلام الله.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ...ما أخوفها من كلمة! كم هو خطير أن ينطوي صدر أحدنا علىٰ مرضٍ يعكر عليه صفو حياته ثم ينسف في الآخرة حسناته ويجعلها هباء منثورا! لا تظن أن هذا المرض نادر، ولا تحكم مسبقا أنك سليم منه تماما. فتعال معنا يا رعاك الله وتعالي معنا يا رعاكِ الله، لنعرف:

أولاً: مظاهر وأعراض هذا المرض فنفتش عنها في نفوسنا، ثم:

ثانيـًا: لنعرف عواقبه ونتائجه الوخيمة فنَحْذرَ منها، ثم:

ثالثـًا: لنعرف أسبابه فنستأصلها من حياتنا، ثم:

رابعـًا: لنعرف علاجه وترياقه فنستشفي به وتطيب لنا حياتنا ونلقىٰ الله بقلب سليم بإذنه تعالىٰ. وهذا القسم سنجعله في آخر الكتاب، حيث نتكلم عن وقاية النفس وعلاجها من النفاق.

أولاً: مظاهر لكراهية ما أنزل الله تعالىٰ:

أمثلة من الواقع:

- دكتور جامعي في مجال الفيزياء يحدثني أنه متزوج من ١٣ سنة ولم يُرزق أولاداً، فحثته زوجته علىٰ الزواج من أخرىٰ. قابَلَ بعض الفتيات للزواج، فقال إحداهن له: «أنا إذا أشك أن هناك آية دسيسة في القرآن فهي آية مثنىٰ وثلاث ورباع»!

- أخرىٰ تقول: «أنا أحب القرآن كله إلا الآية التي فيها ﴿واضْرِبُوهُنَّ﴾، إذا وصلت إليها أتجاوزها إلىٰ ما بعدها ولا أقرأها»!

- لا غرابة في أن تكره امرأة أن يتزوج عليها زوجها أو أن يضربها، هذا شعور عادي متوقع لا إثم فيه. لكن الإثم والمصيبة في أن تكره حكم التعدد نفسه أو حكم الضرب نفسه، فتشك في حكمته وعدل الله فيه، بدلا من أن تكلف نفسها فهم معنىٰ الضرب و ضوابطه ودراسة الحكمة الربانية في تشريعه.

تنبيه مهم:

وهنا لا بد من تنبيه مهم: فليس كل من وقع في مخالفة لآية من آيات الله تعالىٰ يُعتبر كارها لهذه الآية، ولا كل من انتقد ما يُدَّعىٰ أنه تطبيق لحكم من أحكام الله كان كارها لهذا الحكم.

فقد تتبرج امرأة ضعفا منها أو اتباعاً لهواها، وقد تتكلم امرأة بكلام يوهم أنها كارهة لأمر الله بضرب المرأة الناشز، بينما إذا نوقشت في كلامها تبين أنها مقرة بحكمة الله في ذلك معترفة بالحاجة إليه في بعض الأحيان، لكنها كارهة للتطبيق الجائر المنحرف من بعض الأزواج للضرب. فينبغي لنا ألا نسارع إلىٰ الحكم بأن عند فلانا أو فلانة كراهية لما أنزل الله لمجرد فعله أو فعلها للمعصية أو إطلاقه عبارات لا يدرك خطورتها ولوازمها. بل نبين له برفق علىٰ طريقة «لعلك تقصد كذا» بحيث نرتب أفكاره ونفك اشتباك مشاعره وقناعاته وتأثره بالصور النمطية المشوهة والتطبيقات المنحرفة وتأثير الإعلام.

لكن المسلم العاقل في الوقت ذاته لا يتعذر لنفسه بالأعذار المذكورة، بل يتهم نفسه ويفتش فيها عن مثاقيل حب الخردل من هذا المرض. فالكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. ولا ينفعك يا أخي أن تَجْري عليك أحكام الإسلام وتحسب أنك تحسن صنعا وتبرئ نفسك من تهمة كراهية ما أنزل الله ثم تكتشف مرضك هذا يوم الحسرة، ولات حين مندم!

فلا تشغل نفسك باتهام الناس بكراهية ما أنزل الله، بل فتش نفسك وانشغل بإصلاحها قبل كل شيء، ثم أعِنْهُم علىٰ تنقية قلوبهم تجاه ما أنزل الله.

ثانيا: عواقب ونتائج كراهية ما أنزل الله تعالىٰ:

١) **ضياع الإيمان**: لقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

لاحظ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ..فإذا ضاع الإيمان من القلب حل محله الكفر والنفاق.

٢) **فقدان حلاوة الإيمان**: من كره ما أنزل الله لن يجد حلاوة الإيمان. إن المطلوب منا ليس محبة ما أنزل الله فحسب، بل أن يصبح ما أنزل الله ميزاننا الذي به نحب أشخاصاً وأفكاراً ومبادئ ونبغض أخرىٰ. قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)[1].

لاحظ (أحبَّ.. أن يُحبَّ.. أن يكره): حبٌّ وحبٌّ وبغضٌ علىٰ أساس محبة ما أنزل الله. فمن كره ما أنزل الله أصلا اختل لديه الميزان وفقد حلاوة الإيمان.

---

١ البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

٣) **حبوط الأعمال** من نتائج كراهية ما أنزل الله. قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد].

اختار الله أسوأ صفة للكافرين أدت إلىٰ حبوط أعمالهم: أنهم كرهوا ما أنزل الله.

وقال الله تعالىٰ بعدها بآياتٍ في السورة نفسها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد]. كرهوا رضوانه لأنهم كرهوا ما يؤدي إلىٰ رضوانه تعالىٰ، وكان مما كرهوه أحكام الإسلام، وشعائر الإسلام، وأوامر الله ونواهيه.

حبوط العمل أكبر المصائب. تصوروا من يبني بناية يتعب في بنائها سنوات ثم يدمرها! تصوروا من تغزِلُ ثوبا تتعب فيه ليالي وأياما تِباعًا، حتىٰ إذا انتهت منه نقضته وأعادته خيوطا! هذا مَثَل من يعمل أعمالا كثيرة من الخير لكنه يجعلها هباء بانطواء قلبه علىٰ كراهية ما أنزل الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] ..تحذير من رب العالمين وتنبيه للعقلاء. فانتبه لئلا تكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

٤) **الخزي والتعاسة** هو النتيجة الرابعة من نتائج كراهية ما أنزل الله... جزاء وفاقا لهذه الكراهية. فمن حَمَلَ في قلبه هذا المرض فليس أهلا للعزة والكرامة. قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد]، هذا الكلام للمؤمنين المحبين له تعالىٰ ولكلامه وشريعته وشعائر دينه. ثم انظر في الآية التالية مباشرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾[1] [محمد]. فالمؤمن ينتصر بنصرته لله ومحبة دينه والأخذ بالأسباب..والكافر يُهزم ويتعس بكراهية ما أنزل الله تعالىٰ. فكيف إذا تحول المؤمن إلىٰ كراهية ما أنزل الله؟!

وانظر كذلك إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح].

ومما في قلوبهم: محبة ما أنزل الله.

أرأيتم عن أي شيء نتحدث؟! عن مرضٍ يُحبِط العمل ويضيع الإيمان ولذته ويؤدي لحلول الخزي والتعاسة. فحُقَّ لنا أن نعرف أصول هذه المشكلة الخطيرة في أنفسنا وكيف نشأت لنُضيق عليها الخناق ونطفئ نارها قبل أن تحرقنا.

---

١ وأنت تقرأ هذه الآيات التي أنزلت في الكافرين، استحضر ما ذكرناه تحت عنوان: «انتبه! النص القرآني يخاطبك» .

تنبيه مهم:

قد يجد العبد في نفسه نفوراً من بعض الآيات نتيجة لتراكمات التربية والإعلام والبيئة المحيطة، لكنه يدرك أن الخلل فيه هو لا في كلام الله تعالىٰ، ويلجأ إلىٰ الله ليشفيه من هذا النفور، ويطلب العلم النافع متواضعـًا للحق عازمـًا علىٰ الإقرار به ولو خالف هواه، ويطرق باب أهل الصلاح ليُعِينوه علىٰ نفسه. فالذي يفعل ذلك هو في سعيه هذا محمود مأجور.

لكن الخطورة هي في أن يستقر هذا النفور في القلب ولا يعمل صاحبه علىٰ التخلص منه، وقد يسعىٰ إلىٰ التخلص منه بأن يُطَوِع الإسلام لأهوائه هو! فيبحث عن منتسبين للعلم والدين من دعاة الضلالة لـ «يعيدوا تفسير الدين» بما يناسب هواه. وحقيقة الأمر أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون دلالات الآيات التي أجمعت عليها الأمة عبر القرون، وينكرون أحكام الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة. فمثل هذا يكون كارهـًا لما أنزل الله، محبـًا لنموذج مشوه وافق هواه، اصطنعه لنفسه أو صنعه له المبطلون.

فتعالوا نرىٰ أسباب هذا المرض لنحاصره ونتخلص منه.

ثالثًا: أسباب كراهية ما أنزل الله:

إن هذا المرض هو نتيجة مجموعة من العوامل التي تؤثر في النفس عبر السنوات حتىٰ توصل الشخص إلىٰ حالة الشعور بالكراهية لما أنزل الله، وأهم هذه العوامل:

١. انحراف المركزية والمعايير:

فالمركزية في الإسلام هي لله والدار الآخرة. بينما المركزية في ثقافة الحضارة الغالبة عالمياً هي للإنسان وشهواته.

والمعايير الحاكمة المطلقة في الإسلام هي طاعة الله ورسوله والتي تتضمن إقامة الحق والعدل، بينما هي في ثقافة الحضارة الغالبة: الحرية والمساواة.

كثير من أبناء المسلمين تتشكل في نفسه عبر التربية والمناهج التعليمية والإعلام مسطرة (مركزية الإنسان ومعيارية الحرية والمساواة)، فيحاكم بها كل شيء، ومما يحاكمه بها: دينه. والنتيجة هي أنه إذا رأىٰ شيئا مما أنزل الله ومن أحكام الله ما لا يوافق هذه المسطرة، شك فيه وكرهه، ولا يخطر بباله أصلاً أن يحاكم هذه المسطرة ويتحقق من صحتها وصوابها قبل أن يستخدمها في الحكم علىٰ الأمور.

وقد بينا في سلسلة «المرأة» وسلسلة «كن عزيزاً بإسلامك» بطلان مركزية الإنسان ومعيارية الحرية والمساواة عقلاً وشرعـًا وواقعـًا، وأن الحضارات الغالبة انتهىٰ بها الأمر بشقاء الإنسان مع تضييع العبودية لله، وبألا تقيم حقًّـا ولا عدلاً ولا حريةً ولا مساواةً! ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه ١٢٤].

٢. الجهل بالدين وتشوه الصورة الذهنية عن أحكامه:

فعامة المسلمين لا يعرف إلا القليل عن جماليات الإسلام وحكمته ورحمته وعدله في الأحكام التي يتم تشويه صورتها، كأحكام الشريعة التفصيلية والجهاد والحدود وأحكام الأسرة المسلمة وقوامة الرجل علىٰ المرأة. وما يعلمونه منها قد تكون الصورة الذهنية عَنه مشوهة نتيجةً للتلاعب الإعلامي الممنهج وللممارسات المنحرفة المنسوبة إلىٰ الإسلام بالباطل، سواء من المندسين أو من بعض من يوصفون بالمتدينين أو ممن يتصدرون للخطاب الديني دون حكمة وعلم بما يناسب المقام.

هذا كله في الوقت الذي لا يرون فيه الإسلام مقامـًا واقعـًا بشكل متكامل صحيح علىٰ أرض الواقع.

طيب ولنفترض أنك علمت بأمر الله ورسوله علىٰ حقيقته ومع ذلك خالفته، هذا ينقلنا إلىٰ السبب الثالث لكراهية ما أنزل الله وهو:

٣. مخالفة أمر الله ورسوله:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

تخويفٌ من الله تعالىٰ لمن خالف أمر نبيه ﷺ أن تصيبه فتنة. وشرُّ فتنةٍ هي فتنة القلب بحيث يختل ميزانه فيكره ما أنزل الله..قال ابن كثير: (أي: فلْيحذرْ وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنا أو ظاهرا (أن تصيبهم فتنة) أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة).

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فليتذكر ذلك من يشاهد أفلامًا فيها ما فيها من إشاعة للعلاقات الغرامية خارج الزواج الذي أحله الله تعالىٰ، وفيه قتل للغيرة والحياء واجتراء علىٰ حدود الله التي قال فيها: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]، فينفتح القلب ليلقي فيه مؤلفو هذه المسلسلات ما شاؤوا من حب للفسوق والعصيان وتنفير عن أحكام الله تعالىٰ.

ولتَتَذَكَّرْ ذلك من لا تلتزم بما أمر الله به من ستر وحياء وانضباط

في التعامل مع الآخرين.. قد تجد نفسها تعترف أولَ الأمر بذنبها وتطلب ممن حولها الدعاء لها أن يهديها الله. ثم تجدها بعد حين تقلل من أهمية حدود الله في المظهر والتعامل وتنشغل بانتقاد غيرها من «الملتزمات ظاهراً» علىٰ ما عندهن من نقص وتقصير. ثم قد يصل بها الأمر أخيرا إلىٰ أن تُبغض حدود الله وتراها حَجْرا علىٰ المرأة وغَضّـًا من قيمتها، وتسخر ممن يدعو إليها، وتؤيد من حرَّف الدين وأنكر هذه الحدود والضوابط وتنشر كلامه وتدعو إليه. فزاغ قلبها بمعصيتها وأصابتها الفتنة.

فيا من تستمر علىٰ معصية ولا تسارع إلىٰ التوبة منها: أنت بذلك تعرض نفسك لسواد القلب وحلول مرض كراهية ما أنزل الله فيه. وهذا أخطر بكثير من ذنب المعصية ذاته. فلا تفصل بين المعصية والشبهات، وراجع ما ذكرناه سابقـًا تحت صفة (الشك في الدين).

٤. الإعلام الموجَّه:

فالإعلام بما فيه من أخبار ومسلسلات وأفلام كثيرا ما يربط شعائر الإسلام بالجهل والفقر والدموية وسوء الخلق، بينما يقرن التقدم العلمي والجمال والثراء والسعادة بالتغريب والانقطاع عن الوحي، ويلقي مجموعة من الصور تُختزن في اللاوعي، فتتكون أحاسيس

وانطباعات دون وعي منكَ تزاحم قناعاتك الحقيقية وتُضعِف أثرها علىٰ سلوكك.

والإعلام يزين ما حرم الله، مذكراً بقول الشيطان: (لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ). فتحس النفوس التي أحبت الحرام بعدها بثِقَلِ ما أنزل الله ومنافرته لما أحبته واعتادت عليه.

ودراسات مراكز التخطيط الاستراتيجي الغربية تنص بكثافة علىٰ إسقاط مصداقية الشريعة والداعين إليها.[1]

٥. الجهل بالواقع الحقيقي للمجتمعات التي انقطعت عما أنزل الله:

فمن تزيين الإعلام لحياة الغفلة عن الوحي أنه لا يُظهر معاناة المجتمعات الغافلة. وكثير من المسلمين يُكَوِّن انطباعه عن هذه المجتمعات من خلال أفلام هوليوود ونيتفليكس. فإذا جهل المسلم دينه وتشوهت الصورة الذهنية لديه عن أحكامه، وفي المقابل زيِّن له حال المجتمعات الغافلة تماماً عما أنزل الله، واختلت لديه المركزية والمعايير وانحرفت الفطرة فاختل بذلك الميزان الذي يوازن به بين ما أنزل الله وفي المقابل الغفلة عما أنزل الله، كان ذلك كله مما يوقع في قلبه الكراهية لما أنزل الله.

---

١ انظر (دراسات راند) للدكتور إياد قنيبي علىٰ شبكة الانترنت.

٦. طاعة الذين كرهوا ما نزَّل الله:

فتنتقل هذه الكراهية من المطاع إلىٰ المطيع، من الذين أُطِيعوا إلىٰ الذين قالوا: (سنطيعكم في بعض الأمر) كما بينا في بداية صفة «كراهية ما أنزل الله».

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآيات ٢٥-٢٨ من سورة محمد:

(اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة محمد وتدبرها والحذر التام مما تضمنته من الوعيد ؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزَّل الله علىٰ رسوله محمد ﷺ ، وهذا هو القرآن وما يبينه به النبي ﷺ من السنن؛ فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: (سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ) فهو داخل في وعيد الآية ، وأحرىٰ من ذلك من يقول لهم : (سنطيعكم في كل الأمر) كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله؛ فإن هؤلاء لا شك ممن تتوفاهم ﴿المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد:]).[1]

---

١ (أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي).

(٤)
تولي المشركين

والتولي مناصرةٌ وتقريبٌ ومحبةٌ دينيةٌ. فالذي يتولىٰ المشركين يناصرهم علىٰ المسلمين ولا يبالي بكفرهم بل قد يحبه ويتقبله ويرتضيه.

وقد أكثر الله تعالىٰ من الآيات التي تُبرز هذه الصفة في المنافقين.

أسبابها الحقيقية:

وهذه الصفة كذلك هي وليدة الشك في الدين. قال الله عز وجلَّ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في الذين كفروا من بني إسرائيل إلا أنها تضع قاعدة عامة منسحبة علىٰ اليهود وغيرهم أن متولي الكافرين لا إيمان عنده. علماً بأن مجاهداً بن جبر رحمه الله -من أهل التفسير- قال في قوله تعالىٰ ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: (يعني بذلك المنافقين) اهـ.

وانظر كذلك إلىٰ قوله تعالىٰ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

فالمنافق لَـمَّا لم يصح إيمانه بالله واليوم الآخر أصبحت حساباته أرضية، فرأىٰ أن القوة المادية بأيدي الكافرين، فوالاهم ليكونوا له عِزا: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جميعا ۝١٣٩﴾ [النساء] ...

وكما رأينا ارتباط الصفات النفاقية السابقة بمرض القلب فكذلك مسارعة المنافق في تولي الكفار ناتجة عن مرض قلبه. قال الله تعالىٰ:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]

مبرراتهم المعلنة:

١) أنَّ ترك هذا التولي للمشركين يجلب عليهم المصائب ويدفعهم إلىٰ المواجهة مع من لا قِبَل لهم بهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ﴾ [المائدة: ٥٢]

وقد نزلت الآية في وصف حال عبد الله بن أبي ابن سلول ودفاعه عن يهود بني قينقاع وقوله (إني امرؤ أخشىٰ الدوائر).

٢) أنهم بموالاتهم هذه يسعون للإصلاح بين الناس، والعيش بسلام، مع أنهم في الوقت ذاته يعادون المؤمنين ويتآمرون عليهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]

روىٰ محمد بن إسحاق عن ابن عباس في تفسيرها: (أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب)[1]. فرد الله عليهم زعمهم ووصف موالاتهم هذه بالإفساد فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البَقَرَةِ].

وكذلك في الآية الأخرىٰ بعدما فرض الله علىٰ المؤمنين أن يتولىٰ بعضهم بعضا وبين أن الذين كفروا بعضهم أولياء بعض، قال سبحانه: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. فالفساد والفتنة هي في تولي المشركين وترك تولي المؤمنين.

إعانة المنافقين للكافرين ضد المسلمين:

قال الله تعالىٰ واصفا المنافقين:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] .

---

١ تفسير ابن كثير.

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤١]

وقوله تعالىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ قيل فيه: «أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم علىٰ الكذب والضلال والغي»[1]. وعلىٰ هذا فمعنىٰ «سماعون» أي يسمعون سماع استجابة وتقليد وانصياع لهؤلاء المضلين.

وقال ابن كثير: «وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام ويُنهونه إلىٰ أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك». أي أنهم يسمعون النبي ﷺ لينقلوا الكلام لأسيادهم المضلين.

فالمنافقون إذا التقوا بأوليائهم وأسيادهم من المشركين تباهوا بمخادعتهم للمؤمنين وتلقوا من أسيادهم الأوامر وتآمروا معهم للكيد بالإسلام وأهله.

وقال تعالىٰ مبينا نية المنافقين في بناء مسجد الضرار:

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [التوبة: ١٠٧]، أي: إعدادا لاستقبال أبي عامر الفاسق الذي وعدهم أن يأتي بجيش

---

١ تفسير السعدي.

من الروم ليحارب به المؤمنين.

بل وكثيرا ما يكون المنافق أكثر تفانيا من أسياده الكفار الصرحاء في خدمة الباطل وحرب المؤمنين! فهو أذل نفسا وأقل نبلا.

قال الشيخ عليّ القرنيّ:

«الكفار يريدون طائفة النفاق علىٰ المسلمين حُمّىٰ تُنهك، فتكون طاعونا يهلك! يريدونها لسانا فتكون لسانا وعينا وأُذنا ويدا ورجلا ومقراظا للقلع وفأسا للقطع ومعولا للصدع!»[1]

اجتمعوا في الدنيا فسيجمعهم الله تعالىٰ في الآخرة:

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]

فكما اجتمعوا علىٰ عداوة الإسلام والاستهزاء بأهله في الدنيا فسيجمعهم الله تعالىٰ في جهنم حيث يَكْفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا.

الله تعالىٰ يحذر المؤمنين من اتخاذ مَن ليس علىٰ ملتهم أولياء:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ

---

١ من شريط: (أرعد وأبرق يا سخيف) بتصرف

أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] ...

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]..

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، فالله يتبرأ ممن تولاهم ويصفه بأنه ليس من الله في شيء. أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب[١]، وهذا «نفيٌ لوصلة من يفعل ذلك بجانب الله تعالىٰ في جميع الأحوال»[٢]، فلا صلة بينه وبين الله. ويقول سبحانه بعدها: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عِمرَان] .

ويهيج الله تعالىٰ في المؤمنين مشاعر المحبة لدينه ليعلموا أن حب الله ودينه لا يجتمع مع حب المستهزئين بالدين في قلب واحد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة]

---

١ تفسير السعدي

٢ ابن عاشور

وكما نهىٰ الله عن تولي الكافرين نهىٰ سبحانه عن تولي المنافقين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨] ..وهم المنافقون كما في تفسير ابن كثير والسعدي.

وقد بلغ من فساد آراء بعض من ينتسبون إلىٰ العلم أن أفتوا للمواطن المسلم المقيم في دولة غربية بجواز أن يتجنّد ويحارب المسلمين ليحافظ علىٰ جنسيته وحتىٰ لا يطعنوا في وطنيته! معرضين بذلك عن الآيات التي عرضناها وعما رواه البخاري أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين علىٰ رسول الله ﷺ فقُتل بعضهم في الحرب، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

قال ابن كثير: «فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر علىٰ الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية» اهـ. فهؤلاء أناس فُرضت عليهم الهجرة ليتمكنوا من إقامة دينهم بالمدينة فآثروا الإقامة في الأهل والمال والأوطان علىٰ إظهار دينهم حتىٰ دُفعوا دفعا إلىٰ الخروج في جيش المشركين في بدر. فقُتل من قُتل منهم ظالما لنفسه.

فأين يذهب أصحاب تلك الفتاوىٰ من الله؟!

لمن أراد العزة:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المُنَافِقُون]

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة].

فالكفر مذلة والمعصية مذلة، حتىٰ وإن غلب أصحابها وتفوقوا ماديًا. والذي يموت ثابتًا علىٰ دينه فهو عزيز[1]. ولكن المنافقين لا يعلمون ولا يفقهون هذه المعاني والحقائق.

العز في كنف العزيز ومن ... عَبَدَ العبيد أذله الله

---

١ انظر تفصيل ذلك في كتابنا «بشائر»

(٥)
تغيير الولاء بحسب ميزان القوى

وهذا في المنافقين طبع خسيس وخُلق رخيص! فإن المنافق لما كانت حساباته أرضية طينية، فإنه ينظر إلىٰ كفَّةِ مَنْ يميل ميزانُ القوىٰ...فإذا طاشت كفة أوليائه وفقد الأمل في تَغَلُّبهم، تنكر لهم، وولاهم دُبُره، بل وربما حالف ضدهم وساعد عليهم، كأن لم تكن بينه وبينهم مودة! فالمنافق لا يفهم معنىٰ الوفاء لوليه والمروءة والشهامة والنبل والنخوة والنجدة...ومن استثار فيه هذه المعاني كان كمَثَلِ الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

قال الله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

هكذا المنافق! وعود عريضة وقد يدعي شجاعة وثَباتًا...لكن الله بين كذبهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر] ...

فبمجرد أن يذهب مجد الكافرين يظهر معدن المنافق... ثم بين

الله تعالىٰ السبب في تقلب المواقف فقال:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]

فالمنافق عندما والىٰ الكافر ما استحضر أمر الله ونهيه...وعندما ترك هذه الموالاة ما تركها لله، وإنما خوفا من المؤمنين. فهو لم يذكر الله علىٰ كل حال!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر]

والمنافق قد يصل في ذلك دركة أسفل مما يصله الكفار. ففي غزوة بني قريظة أوفىٰ حيي بن أخطب لبني قريظة بوعده أن يدخل معهم في الحصن ويتعرض للمصير الذي يتعرضون له، ولم يوفِ المنافقون بوعد النصرة لبني النضير الذين نزلت فيهم هذه الآيات أعلاه.

- وانظر إلىٰ هذه الآية التي تصور حال المنافقين كيف ينظرون إلىٰ الصراعات: «أي الطائفتين يغلب؟ لنظهر له ولاءنا ونَتَنَكَّر مباشرة للطائفة الأخرىٰ»! قال الله تعالىٰ:

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]

فهم مع المنتصر أيا كان. وكأني بالمنافق يمشي مخبولا يسيل لعابه، حاملا في يده صحنا يدور به باحثا عن المنتصر ليستجديه أن يملأ الصحن طعاما... إن قلتَ له: «رضوان الله»، «الجنة»، «الغيرة

علىٰ الدين»...فتح فمه ببلاهة ونظر إليك نظرة من لم يفهم شيئا ثم تولىٰ عنك وهو يقول: «وهل تملأ هذه صحني؟»!

قال رسول الله ﷺ: ((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلىٰ هذه مرة، وإلىٰ هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع))[1].

وقال الله تعالىٰ:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢]

فيعتبر المنافق نذالته حكمة بل ونعمة من الله تعالىٰ! فيتباطأ عن الجهاد والتضحية ويبطِّئ غيره ويخذلهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ٧٣] سيندم حينئذ ويتمنىٰ لو كان مع المؤمنين. هل تراه يندم لأنه يرىٰ نصر الله لعباده المؤمنين فيعلم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فيحتقر ما هو فيه من نفاق وتشتاق روحه إلىٰ التحليق في مدارج الأبطال ؟ لا! بل ما زالت تطلعاته لا تعدو أصابع قدميه!

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]، يريد الغنيمة، مالاً ومتاعـًا زائلاً، وسمعة لا يستحقها. هذا الفوز العظيم الذي يتطلع إليه ولا تعدوه عيناه!

---

١ مسلم (٢٧٨٤).

- لذلك فالمنافق ليس له ولاء حقيقي لأحد. إنما هي المصالح الدنيوية الزائلة تحدد انتماءه وولاءه. قال الله تعالىٰ في وصفهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤].. فالمنافق لا هو منتمٍ إلىٰ المؤمنين انتماء حقيقيًا ولا إلىٰ الذين غضب الله عليهم «اليهود» انتماء حقيقيًا. إنما هي المصالح!

- وقد وقع في هذه الصفة أقوام يُنسبون الىٰ العلم، فصاروا يسوغون تقليب الولاءات بحسب القوىٰ والخنوعَ للقوي المبطل ويصبغون ذلك بصبغة شرعية! والله من ذلك بريء، ورسولُه ﷺ سيد الشرفاءِ الأوفياءِ والمؤمنون الصادقون برآء.

(٦)
الكذب

النفاق والكذب لفظتان مترادفتان:

لو طلب منك أن تُجمِل صفات المنافقين في كلمة واحدة فقل: هي «الكذب»! قال الله تعالىٰ:

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٢٤] فجعل في مقابلة الصادقين: المنافقين.

وفي حديث ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا)) تجد أن الصفات الأربعة تدور حول الكذب: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف (والإخلاف نوع من الكذب)، وإذا عاهد غدر (والغدر كذب إذ هو خلاف الصدق في الوفاء بالعهد)، وإذا خاصم فجر (ومن أوضح أشكال الفجور في الخصومة: الكذب في ذم الخصم).

قال الحسن البصري: «أصل النفاق الذي بُني عليه النفاق: الكذب»[1].

ومما يشبه الكذب أن يخالف فعلك قولك، فيكون الفعلُ مكذِّبًا للقول.

---

١ رواه الفريابي في «صفة النفاق» (٤٨)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٠٨)، وأبو نُعيم في «صفة النفاق» (١٢٩) بإسناد صحيح إلىٰ الحسن البصري.

لذا ترىٰ أن الله تعالىٰ كره، بل مقت أن يتلبس المؤمن بهذه الصفة التي تجعله يتقاطع مع شخصية المنافق في شيء مشترك فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف]. وكم نرىٰ هذه الصفة- مخالفة الفعل للقول- في المسلمين! كم نراهم يذمون واقعا هم لِبناتُه والمسهمون فيه:

كم قلت أمراض البلاد وأنت من أمراضها
والشؤم علتها فهل فتشت عن أعراضها
يا من حملت الفأس تهدمها علىٰ أنقاضها
اقعد فما أنت الذي يسعىٰ إلىٰ إنهاضها
وانظر بعينيك الذئاب تعبُّ في أحواضها

كم ترىٰ من مسلم يذم الخيانة وتسليم البلاد لأعدائها ويلعن المتآمرين من بني جلدتنا، وإذا سألته: «أتتمنىٰ أن تجاهد؟» قال بلا تردد: «يا ريت! طبعـًا»، ثم هو يأخذ القروض الربوية، ويعقد البيوع المحرمة،مكذبـًا شعاراته الرنانة. فهو يفعل خلاف ما يقول. فنسأل الله أن يهدي أمثال هؤلاء ويُصلح أعمالهم.

المنافق يكذب أول ما يكذب علىٰ نفسه:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]

قال: (...وكَذِبُ المنافقين باعتذارهم بالباطلِ وجَحْدِهِمْ نفاقَهم).

فالمنافق يعتذر لنفسه بالباطل، ويبرر لها نفاقها، بل يجحد أنه منافق أصلاً! ويعمي نفسه عن الحق، ويزين لها ما هي عليه من سوء، ويُحجِّم نداء الإيمان فيها، ويقنعها بأن طريق النفاق أسلم، وقد يخدر شعور نفسه بأن فيها صفات حميدة وأنها علىٰ خير.

المنافق يكذب ليبرر أعماله السيئة:

أمَا وقد خدع نفسه فالخطوة التالية هي مخادعة المؤمنين. فالمؤمنون في نظره بسطاء سذَّج ليس عندهم من الحكمة كالذي عنده، وإيمانهم إيمان السفهاء في نظره! ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البَقَرَة: ١٣] . فلا بد من مخادعتهم «تَرَفُّعًا» عن الخوض معهم في جدل عقيم، ووقايةً للنفس من انفعالات عواطفهم «الساذجة» في نظره. فلا يجد المنافق حرجا من أن يحلف لهم كذبا:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون]

فهو يفعل كل بشعة ويتمرغ في أوحال النفاق ثم يحلف بالله ما أراد إلا الحسنىٰ، فينطلي حلفه علىٰ مؤمنين لا يتصورون أن يحلف رجل كذبًا بالله الذي يعظمونه! فيتمادىٰ المنافق في طغيانه بعد أن اطمأن إلىٰ تصديق المؤمنين له.

وانظر كيف ينكر الله تعالىٰ عليهم هذه الفعلة القبيحة-الكذب للصد عن سبيل الله، فيقول:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

وذلك كقوله تعالىٰ أيضا:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦]، فالأيمان الكاذبة هي الدرع الواقي الذي يحتمي به المنافق في الدنيا والستار الذي يُمَرِّر من ورائه كل رديّة، لكنها الغموس له في نار جهنم.

وانظر فيما يلي كيف يغطي المنافق صفاته النفاقية بالكذب، سواء من الصفات التي ذكرناها حتىٰ الآن أو صفات سيأتي الحديث عنها:

١. الشك في الدين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البَقَرَة]

وقال تعالىٰ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]

٢. الإعراض عن الاحتكام إلىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]

إلىٰ أن قال تعالىٰ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢] فيحلفون أنهم ما احتكموا إلىٰ الطواغيت تكذيبا بالإسلام.

٣. تولي الكافرين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة].

فالمنافقون تولوا اليهود الذين ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وهم يحلفون كذبًا ليغطوا علىٰ ولائهم لليهود.

٤. رفض التضحية في سبيل الله:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]

..فكذبوا بزعمهم أنهم لا يتوقعون حصول قتال ليبرووا بذلك نكوصهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ والمؤمنين في معركة أُحُد.

وقال تعالىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]..فحلفوا كذبًا ليبرروا تخلفهم عن غزوة تبوك.

٥. قلة الأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله ﷺ:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

فهم كانوا يتنقَّصون من النبي ﷺ ويكذبونه ثم إذا نقل إليه شيء من ذلك حلفوا أنهم ما فعلوا.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالسا في ظل حجرته قد كان يقلص منه الظل فقال ﷺ لأصحابه: (يجيئكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا رأيتموه فلا تكلموه). قال: فجاء رجل أزرق. فلما

رآه النبي ﷺ دعاه قال: (علام تشتمني أنت وأصحابك؟) قال: كما أنت حتىٰ آتيك بهم. فذهب فجاء بهم فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا ولا فعلوا، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨])[1]

فانظر إلىٰ هذا الرجل كيف احترف الكذب حتىٰ أنه يتظاهر للنبي بأنه لن يقول شيئًا لئلا يُكذَّب، بل سيأتي بأصحابه ليحلفوا أنهم ما شتموا، وكأن كذب الجماعة أوثق من كذب الفرد! فيأتون يحلفون... ورسول الله ﷺ في هدوئه ورفعته ينتظرهم ليفرغوا من تمثيلهم المبتذل ويتجاوز عنهم.

تخيل المنافقين إذا افتضح أمرهم أمام أي صالح يخشون سطوته...يأتون فيصطفون أمام هذا الصالح وقد تقاسموا الأدوار: فأحدهم يقسم بالله رافعا إصبعه الآثم إلىٰ السماء، والآخر يقبض يديه ثم يمدهما مع بسط أصابعه إنكارا، والثالث يقاطع صاحبيه وهو يشير إلىٰ صدره الأسود من الداخل مشهداً الله علىٰ ما في قلبه -في زعمه-

---

١ رواه أحمد (٣٢٧٧) والبزار (٥٠١٠) والحاكم في «المستدرك» (٣٧٩٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٨٢)، وصحح إسناده الحاكم وابن تيمية في «الصارم المسلول» (٢/ ٤٨) وقال الهيثمي (١١٤٠٨) رجاله رجال الصحيح. وحسَّن إسناده شعيب الأرنؤوط.

من حب وتعظيم لله ولرسوله ﷺ.

٦. التفريق بين المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]

وهكذا هم! سوء طوية وفساد نية، وادعاء عريض مع عمل بغيض:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النور]

فهم يقسمون بالله على استعدادهم للتضحية في سبيل الله والخروج للجهاد، ويتفننون في أيمانهم ليخادعوا المؤمنين. يقسمون على استعدادهم لطاعة الله ورسوله، لكنها طاعة معروفة! لا تتجاوز الدعاوى العريضة باللسان دون عمل يصدقها.

المنافق يكذب خوفا من المؤمنين، والله أحق أن يُخشى:

قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ﴾ [التوبة: ٩٥] ...

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] ...

وقال تعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]

فلا يخافون إلا الناس، ولا يبالون أن يكون ما بينهم وبين الله تعالىٰ خرابا!

قد يُصدق المؤمن المنافق:

فالمؤمن بطهر قلبه وتعظيمه لله تعالىٰ قد لا يتصور أن يوجد في الناس من يحلف بالله كذبًا بهذه الصورة المبتذلة..

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ... أيُعقل أن يكون في بني آدم من يقول: (أُشهد الله أني مؤمن به مصدق لرسوله محب لدينه) وهو في الحقيقة عدو لله مبغض لدينه!؟ أيصل الاستخفاف إلىٰ أن يُشهد الله علىٰ ما في القلب ليتقي بطش المؤمنين، وهو يعلم أنه ما في القلب إلا العفن وسواد النفاق! أي استهزاء بالله هذا؟! ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥]

وهكذا هم: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة]

فالمؤمن قد يرضىٰ عن المنافق لحلاوة لسانه الموهمة بخلاف ما في قلبه.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾

[المنافقون: ٤]

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

فأمَرَنا الله تعالىٰ ألا نؤمن لهم ولا نصدقهم إذا ظهرت لنا منهم أمارات النفاق وخالفت أفعالُهم أقوالَهم، فإن تصديقهم حينئذٍ خطر:

﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾

[التوبة: ٩٤]

فالمنافق لن يقف ليقسم بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم أنه يكره دين الله وأنه مخادعٌ للمسلمين، لكن لسان حاله ينطق بذلك، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال.

من يدّعي حب الحبيب ولم ... يفد من هديه فسفاهة وهراء

فالحب أول شرطه وفروضه ... إن كان صدقا طاعة ووفاء

منافقو أيامنا هذه يستعلنون:

في أزمنة عزة المؤمنين وعلو شأنهم كان المنافقون لا يستعلنون بخبثهم، بل يتناجون به خفية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨].

أما في أيامنا هذه، فمع ضعف المؤمنين أصبح المنافقون، وأئمتهم خاصة، في أكثر الأحيان لا يحتاجون إلىٰ ستر سوءاتهم. فالاستكبار علىٰ الدين ورفضُ أحكامه ونصرة الكفار أصبحت كلها من مقومات السيادة ومؤهلات الصدارة في كثير من مجتمعات المسلمين. وصارت حاجة المنافقين إلىٰ الكذب بالقَدْر الذي يُخَدِّر غضب عامة المسلمين الذين ينخدعون بكلمات قليلة معسولة تُظهِر حب الدين، يطلقها المنافق وهو يسبح في وحل نفاقه الواضح لكل ذي بصيرة، إنما هو لا يريد أن يزعجه هؤلاء «الدراويش» إذا أغضبت سلوكياته وتصريحاته «المتنورة» عواطفهم الدينية «الساذجة» في نظره!

تَبلغ السفاهة بالمنافق أنه يحاول الكذب علىٰ الله تعالىٰ:

وهذا دَرْك من العجب أن تنحط إليه نفس إنسانية! واستخفاف قبيح بعظمة الله تعالىٰ! خاصة إذا تذكرنا أن هذه المحاولة البائسة ستكون يوم البعث عندما يُكشف الغطاء فالبصر حديد ولا غيب يومئذ! قد عاين المنافق صِدق ما كان يشك فيه وعلم أن الله هو الحق المبين. أَمَعَ هذا كله لا زال يكذب، بل يحلف كذبا! ولِيُخادعَ من؟! ليخادع الله تعالىٰ! ولا أرىٰ لها تفسيراً إلا الطمس الكامل علىٰ البصيرة.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ

﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ [المجادلة]..

فبالهيئة المبتذلة نفسها يحلفون ويحسبون أن ذلك ينفعهم مع مَنْ يعلم السر وأخفىٰ!

فالمنافق ما وصل إلىٰ هذا المستوىٰ الدنيء إلا بكثرة تمرسه في الكذب في الدنيا... أدمن الكذب بل الحلف علىٰ الكذب فاستقر ذلك في قلبه ولم يَبْلَ مع الدفن وتعاقُب القرون قبل البعث.

وانظر إلىٰ هذا الحال العجيب الذي يصفه القرآن لبعضهم:

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: ٧٦] ... يُقر فريقٌ من منافقي اليهود بأن الله تعالىٰ قد بعث محمدا ﷺ رسولا ويَذكرون نعته في التوراة المطابق للواقع، فيلومهم فريق آخر لأن هذا الإقرار يُقَوِّي حجة المؤمنين علىٰ المنافقين عند الله يوم القيامة. بل ويشتد هذا الفريق في النكير حتىٰ يقول للأولين: «أفلا تعقلون!». وكأنهم يتكلمون عن إله غائب لا يسمعهم في هذا الحوار، بل ولن يطَّلع علىٰ ما في صدورهم حتىٰ ولا يوم القيامة!

قال ابن عاشور في ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾:

«وذلك يوم القيامة لا محالة، أي يجعلون ذلك حجة عليكم أمام الله علىٰ صدق رسولهم وعلىٰ تَبِعَتِكم في عدم الإيمان به. وذلك جارٍ

علىٰ حكاية حال عقيدة اليهود من تشبيههم الرب سبحانه وتعالىٰ بحكام البشر في تَمَشِّي الحيل عليه وفي أنه إنما يأخذ المسببات من أسبابها الظاهرية. فلذلك كانوا يرتكبون التَّحَيُّل في شرعهم، وتجد كتبهم ملأىٰ بما يدل علىٰ أن الله ظهر له كذا وعلم أن الأمر الفلاني كان علىٰ خلاف المظنون» اهـ.

فقال تعالىٰ معجِّبا من سفاهتهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البَقَرَة]

وهذا القدر من الانحراف يحتاج تدربـًا واعتياداً طويلا علىٰ الكذب! فمخادعةٌ للنفس، ثم مخادعة للناس، ثم مخادعة لله في الدنيا، ثم مخادعة لله يوم القيامة. وما ذلك إلا لأن قلوبهم قست ففقدوا الشعور: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]

اللهم فاعصمنا من الانحطاط إلىٰ هذه الدركات.

الصدق تدل عليه الأعمال والتضحيات:

فالدعاوىٰ يستطيعها كل أحد، أما الأفعال فلا يَثْبُت عليها إلا الصادقون، خاصة إذا كان فيها التضحية بالنفس والمال كما في الجهاد. لذلك تجد في سورة براءة أن الله تعالىٰ فضح المنافقين وبيَّن تخاذلهم عن الجهاد ثم قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١١٩-١٢٠]

فالمؤمن الصادق يبرهن علىٰ صدق إيمانه بألا يضن بنفسه عن تضحية ضحاها رسول الله، وألا يتناءىٰ بها عن معاناة ومشقة عاناها رسول الله ﷺ. والمؤمن الصادق لا يقول لنفسه: «أيُعقل وأنا صاحب الأملاك والعقارات وصاحب العقلية الذكية والمواهب الفريدة أن أعرضها للمخاطر؟!» ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ ...فإذا كان مطلوباً منه تضحية في سبيل الله فإنه لا يربأ بنفسه عنها كما لم يضن رسول الله بنفسه.

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] ..إلىٰ أن قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]

فجعل الصدق -الذي هو ضد الكذب صفةِ المنافقين- في الإيمان الذي لا يخالطه شك وفي الجهاد.

وقال تعالىٰ:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

و(حين البأس) أي: عند مواطن القتال والشدة. وهذه الآية تنص علىٰ أن الذين صدقوا-في مقابلة المنافقين الذين كذبوا-هم أولئك الذين يأتون بهذه الأفعال. وقد رأينا، وسنرىٰ فيما يأتي، أن المنافقين لا يأتون بها. فبدل الإيمان شك، وبدل إقام الصلاة تخلُّفٌ عنها وإذا قاموا إليها قاموا كسالىٰ، وبدل إيتاء الزكاة بيقين وانشراح لا ينفقونها إلا وهم كارهون، وبدل الوفاء بالعهد إخلافٌ وتولوا وهم معرضون، وبدل الصبر انتكاسة وجبن بحيث لو سُئِلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ويكرهون أن يضحوا في سبيل الله.

(٧)
كراهية التضحية في سبيل الله

الإنسان بطبعه يكره المشقات وتعريض النفس للهلاك، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]. فليس هذا الكُره الطَّبَعي من النفاق. لكن المؤمن في المقابل يحب التضحية من حيث هي طاعةٌ لله تعالىٰ يؤجر عليها وتكون لها العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. وهذه المحبة هي التي لا توجد عند المنافق.

كما أن حديثنا هنا ليس عن تضحية يَشُكُّ المؤمن في كونها مفروضة عليه أو في أنها محبوبة إلىٰ الله. فمثلاً: مواجهة الظالمين وأعداء الدين باليد واللسان والسَّنان أمرٌ محبوبٌ للمؤمنين. ويُظن بكثير منهم، حتىٰ ممن يقارف الذنوب، أنهم مستعدون للتضحية فيها إذا كانوا مقتنعين بصحة هذه المواجهة وأنها مما يحبه الله ويرتضيه لهم. فإذا تكوَّنَتْ هذه القناعة فقد ترىٰ من إقدامهم وشجاعتهم عَجَبًا. لكنهم قد يترددون عن التضحية لشكهم في موثوقية الداعي إلىٰ مثل هذه المواجهات أو صحة منهجه، ولغياب القدوات الموثوقة، ولخوفهم من أنها لن تزيد المسلمين إلا ضعفًا وقهراً. فليس لأحدٍ حينئذ أن يتهمهم بالنفاق وكراهية التضحية في سبيل الله.

أما المنافق فقد اجتمعت عليه ذنوبه حتىٰ أمرضت قلبه فشك في

الله والدار الآخرة. فكيف يتوقع منه أن يضحي حينئذ؟!

علاقة كراهية التضحية في سبيل الله بالشك في الدين ومرض القلب والذنوب:

ولنأخذ مثالاً كراهية الجهاد في سبيل الله والتخلفَ عنه، لنرىٰ كيف أنه كما في العديد من صفات المنافقين، فهذه الكراهية والتخلف عن الجهاد ناتج عن الشك في الدين، والذي ينتج عن اتباع الهوىٰ، والذي بدوره يستحكم في القلب المريض كلما أمرضه صاحبه بالمعاصي.

أما الذنوب، فقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]

وقد روىٰ البخاري أنها نزلت في المنافقين الذين رجعوا من جيش رسول الله المنطلق إلىٰ أحد، فأبوا أن يتابعوا معه المسير إلىٰ الجهاد. فالتخلف عن الجهاد إذن ثمرة الذنوب.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]..وهذه الآية وإن كانت نزلت في مؤمنين لا في منافقين، إلا أنها تدل علىٰ المعنىٰ ذاته، من أن الذنوب التي يُسلفها الإنسان أيام الراحة تجتمع عليه يوم الجهاد لتُضعفه عن إرادة التضحية في سبيل الله تعالىٰ.

وأما علاقة كراهية الجهاد بمرض القلب،

فقال تعالىٰ:

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد]

فمرض القلب يُجَبِّنُ عن القتال ويجعل صاحبه يَفْغَرُ فاه ويَصْفَرُّ وجهه إذا علم بقرب المواجهة. وانظر ارتباط مرض القلب بالذنوب من إفسادٍ في الأرض وتقطيعٍ للأرحام.

وقال تعالىٰ:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة]

فَتَرْكُ الجهاد مقترن بالطبع علىٰ القلب، وهو أسوأ أشكال مرض القلب. فمرض القلب يُقعد عن الجهاد، والرضا بالقعود عن الجهاد يزيد مرض القلب. والحديث هنا عن الرضا بالقعود، المشتمل علىٰ كراهية للتضحية في سبيل الله عن قلة إيمان وقلة يقين بالجزاء العظيم.

وأما علاقة كراهية الجهاد بالشك في الدين، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] ..فهؤلاء استأذنوا الرسول ﷺ لئلا يخرجوا لغزوة تبوك.

ولا عجب. فكيف يضحي إنسان بنفسه في سبيل قضية لا يؤمن بها؟! إن كانت التكاليف المطلوبة سهلة ميسورة فقد لا يجد المنافق بأساً أن يؤديها، علىٰ طريقة ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلَت: ٥٠] ... فالمنافق قد يؤدي بعض التكاليف «احتياطا»، بحيث «في حال» ثبت أن هناك إلهاً وآخرةً وجنةً وناراً فها قد قدم ما قد ينجيه في ظنه، وفي حال أن ذلك كله لم يكن فهو لم «يخسر» كثيرا! أما أن «يغامر» بنفسه في سبيل ما لا يَتيَقَّنُ بوجوده، فالمنافق يضِن بنفسه عن ذلك.

المنافق يتفنن في الأعذار للتخلف عن التضحية في سبيل الله:

أ) فتارة يتعلل بعدم مناسبة الطقس! قال تعالىٰ:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].. وكأن الجهاد يتحمل التأجيل حتىٰ يصبح الجو جميلا وتكون رحلة الجهاد نزهة شيقة!

تَصَوَّرْهم معي وقد تواروا عن أنظار المؤمنين فتغامزوا ضاحكين من عذرهم الذي يعلمون سخفه..فرد الله عليهم ردا يهز الكيان ويقشعر منه جلدُ مَن بِهِ روح: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة].

وَلْيبكوا كثيرا...فرسول الله ﷺ قد قال: ((إن أهون أهل النار عذابا مَنْ لَهُ نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرىٰ أن أحدا أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا))[1].

فما بالك بمن هو في الدرك الأسفل من النار؟! لن يفرحوا يومئذ بمقعدهم! بل كأن النار تقول لهم: لا تنفروا في الحر! فها قد أتاكم إلىٰ عندكم!

وانظر كيف قال الله تعالىٰ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ..وهذا فارق بين المؤمن والمنافق. فإن المؤمن قد يقع في معصية لشهوة، أو يكسل عن طاعة، لكنه مقر بذنبه كارهٌ له لا يفرح به بل يندم عليه..كما حصل مع كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم عندما تخلفوا عن تبوك.

ب) وتارة يتعلل مَن في قلبه نفاق بعدم مناسبة الوقت للتضحية الواجبة في سبيل الله. فهو لا زال يريد أن يستمتع بالدنيا..قال الله تعالىٰ:

---

١ البخاري (٦٥٦١، ٦٥٦٢) ومسلم (٢١٣) واللفظ لمسلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

وقد روىٰ النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس ما يدل علىٰ أن هذه الآية شملت بعض الصحابة الصادقين الذين تمنوا الجهاد حقا لكنهم ضعفوا عند فرضه عليهم. لكن شتان بين هؤلاء الصحابة والمنافقين. فإن هذا الفريق من الصحابة وإن كبا كَبْوَةً عارضةً إلا أنهم بعد تذكير الله لهم استجابوا لله وللرسول فنهضوا شجعانا ولم يتخلفوا عن رسول الله بعدها، ومسحوا هذه الزلة العارضة بتاريخ أبيض ناصع من الصبر والثبات، لم يؤثَر عنهم بعدها «لولا» ولا «ليت». وخير الخطائين التوابون.

أما المنافقون فإنهم لما دَنَت المواجهة وفُرض القتال ضرب الخوف أطنابه في قلوبهم، فخشوا الناس أكثر من خشية الله وبقوا معترضين علىٰ قدر الله وأمره متسخطين عند كل اختبار قائلين في أنفسهم: (ربنا لِمَ كتبت علينا القتال؟)! وأكبر همهم أن يتواروا عن أعين المؤمنين فلا يُعلم نكوصهم عن الجهاد. فإذا خرجوا إليه كارهين فإنهم لا يأتون البأس إلا قليلا. وفي قتالهم هذا:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨] ..أي من اتباعنا دين محمد.

ويبقىٰ هذا الجبن والتسخط في قلب المنافق إلىٰ أن يموت.

جـ) وتارة يتعلل ببعد المسافة عن أرض الجهاد:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]

فما عند المنافق من إيمانٍ لا يكفي إلا لمسافة قصيرة... وبَعد هذه المسافة ينفد وقوده الإيماني! ويا حبذا لو كان المنتظر من هذا الجهاد القريب غنيمة تستحق الخروج؛ فـ «جنة عرضها السماوات والأرض» لا تفعل في نفس المنافق فعل متاع من الدنيا قليل!

د) وتارة يتعلل بأن الجهاد سوف يَفْتِنه وبأن طاعة الله ستنفره عن دين الله !:

روىٰ المفسرون أن رسول الله ﷺ أثناء تجهيزه لغزو الروم قال لرجل اسمه الجَدُّ بن قيس: ((هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟)).. أي: ألا تخرج لتقاتل الروم؟ فقال: (يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما رجلٌ أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشىٰ إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر عنهن). فأنزل

الله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩][1].

وإن البعض قد يتعذر لنفسه في ترك أمر من أوامر الله بأنه إن فعل هذا الأمر فسينفر من الدين..فيقول في نفسه: فلأَبْقَ علىٰ معصية فعلية خير لي من هذه الموبقة العقدية: النفرة من الدين. قد يقولها من يكتسب المال من الحرام ويخاف أن «ينزل مستوىٰ معيشته»، وقد تقولها من لا تراعي الضوابط الشرعية في التعامل. وإنما يتعذر لنفسه بما ليس عذراً شرعيًا ولا هو مُكْرَه.

فليحذر هؤلاء جميعا من قول الله تعالىٰ:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]

فهذا التعذر الأجوف هو عين الفتنة، كما أن ترك أمر الله فتنة، فكم نرىٰ من تخذيل عن مواجهة الباطل ومخططات أعداء الأمة بحجة أن مواجهتهم تجلب الفتنة والويلات، بينما حقيقة الأمر أن الشباب الذين لم يُنَشَّؤوا التضحية في سبيل الله تأسَنُ أرواحهم فيقعون في مستنقعات الشبهات والشهوات وهذا عين الفتنة.

هـ) وتارة يتعذر المنافق بأن وقوفه في خط المواجهة يهدد أمنه الداخلي:

---

١ وسبب النزول هذا وإن كان في إسناده ضعف إلا أن الطبري قال فيه: وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]

فقد ادعىٰ المنافقون أن بيوتهم قريبة من جيوش العدو فيخافون علىٰ أهليهم أو أموالهم.

وهكذا...إذا دهم العدو بلدا من بلاد المسلمين واستنصر المسلمون إخوانهم في البلاد الأخرىٰ فإن المتخاذلين في البلاد الأخرىٰ يرفعون شعار أن المحافظة علىٰ أمن بلدهم أولىٰ من نصرة المسلمين المنكوبين، مع أنهم يقرؤون قول الله تعالىٰ:

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]

و) وتارة يتعذر بالانشغال بالمال والأهل:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١١]

فهؤلاء تخلفوا حين أراد النبي ﷺ السفر إلىٰ مكة وأحرم بعمرة وساق معه الهدي، ليعلمَ أهل مكة أنه لا يريد حربـًا، فطلب رسول الله ﷺ من هؤلاء الأعراب أن يخرجوا معه ليكثر المسلمون في عين عدوهم «كفار قريش» فلا يغدروا بهم.

فتثاقلوا عنه ولم يطيعوه ﷺ. فأخبر الله تعالىٰ أنهم سيتعذرون

بالانشغال بالمال والأهل، وأنهم سيطلبون من النبي الاستغفار رياء ونفاقا، فهم لم يندموا علىٰ تخلفهم ولم يتوبوا إلىٰ الله بقلوبهم.

فهذه أعذار المنافقين في ترك التضحية في سبيل الله! ظلمات بعضها فوق بعض..حجج الخَزِيِّ الجبان وادعاءات بطال كسلان. وهو مع ذلك كله يقسم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣]

طاعةٌ مشروطة بشروط يعلم المنافق أنها لا تتحقق. فهو لا يريد التضحية في سبيل الله. فهو كمن قال:

أُحَمِّسُ في الوغىٰ أبناء قومي ... وأحمي ظهرهم عند القتال
فإن فروا سبقتهم جميعا ... وإن كروا فقد دبرت حالي
ولي عزم يشق الماء شقا ... ويكسر بيضتين علىٰ التوالي

ومع هذا ترىٰ المنافق «كريمًا» في الادعاءات.

قال تعالىٰ في المنافقين: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]

قال ابن كثير: أي: «فإذا كان الأمنُ تكلموا كلاما بليغا فصيحا عاليا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم

يكذبون في ذلك».

أي أنهم عند انتهاء المواجهة ينسبون لأنفسهم فضلاً وشجاعةً وتضحيةً كذبـًا منهم.

لا يكتفي المنافق بقعوده عن التضحية في سبيل الله، بل ويثبط غيره:

قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]

فيتباطأ هو في نفسه ويبطئ غيره عن الجهاد.

بل ويطعن المنافق في التضحية في سبيل الله نفسه ويعتبر تركها حكمة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

وهذه الآية تحكي ما قاله المنافقون فيمن قُتل من المسلمين يوم أُحُد، حيث قالوا: «لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج في جيش المسلمين ما قتلوا مع من قتل».. ففي القعود السلامة!

يرىٰ الجبناءُ أن العجز عقلٌ وتلك خديعة الطبع اللئيم

بل ويستغل بعض المنافقين ما يصيب المؤمنين من ابتلاء في سبيل الله ذريعة للطعن في الدين ذاته: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

قال بعض المفسرين فيما أورده البغوي: أي: «لو كنا علىٰ الحق ما قتلنا ههنا». فهم اعتبروا ما أصاب المسلمين يوم أحد دلالة علىٰ بطلان الدين. فحساباتهم أرضية بحتة، لا يفهمون أن الله تعالىٰ ينقي بذلك الابتلاء صف المؤمنين من شوائب المنافقين، ويتخذ شهداء يعلي لهم المنازل ويعظم لهم الأجور.

والمنافقون ادعوا بأن طاعة النبي ﷺ في الخروج إلىٰ المشركين سببٌ للمصيبة في أحد. والحق أن سبب المصيبة هو عصيان الرسول ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]

ومع ذلك فالمنافقون يعكسون المسألة وينسبون المصائب التي تحل بالمسلمين إلىٰ طاعة الله ورسوله!

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨]

أي من قِبَلك (يا محمد) وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك[١]، ويقولون هذه من عند محمد، أساء التدبير وأساء النظر[٢].

---

١ ابن كثير
٢ الطبري

وقال الله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٦]

«ينهىٰ الله تعالىٰ عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص، وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي: غزاة، ثم جرىٰ عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وهذا كذب منهم»[1]. فالكافر والمنافق لا يؤمن بالقدر، فيقول: «لو سمع هؤلاء كلامنا ولم يخرجوا لما ماتوا في السفر أو قُتلوا في الغزو».

لذا ترىٰ أن الله تعالىٰ يحذرنا من هذا المنطق الكاذب في اعتبار ما يصيب المسلمين من ابتلاءات دلالة علىٰ بطلان قضيتهم ودافعا إلىٰ التخاذل عن التضحية، ويرد علىٰ هذه الأقوال جميعا، علىٰ من قال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

وعلىٰ من قال ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

---

١ تفسير السعدي

وعلىٰ من قال ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦] ...

يرد عليهم وعلىٰ كل متخاذل مُخَذِّل جَزِعٍ عند نزول القضاء، لائمٍ لساداته من المؤمنين النبلاء، يرد الله تعالىٰ بأجمل رد وأفصح بيان: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]، ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]

فالموت سيحصد الشجاع والجبان

غير أن الفتىٰ يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

لكن شتان بين طريقة موت كل منهما.. وشتان بين الذكرىٰ التي يتركها كل منهما.. وشتان بين المآل والمصير.

«هل لدي نفاق ولذلك لا أريد التضحية في سبيل الله؟ أم أني غير مقتنع بأنها تضحية يحبها الله؟»

قدمنا بأن كثيرا منا نحن المسلمين يتردد في التضحية ليس لأن لديه نفاقًا، وإنما لعدم قناعته بأن هذه التضحية محبوبة إلىٰ الله تعالىٰ، ولقلة القدوات وعدم وضوح الطريق. لكن هل هذا كله عذرٌ لنا؟

أم أن علينا أن نبرهن لله تعالىٰ علىٰ صدق نياتنا بتقديم التضحيات الأصغر، كترك المنكرات والمألوفات المحرمة لوجهه تعالىٰ، وعقد النية علىٰ أننا مستعدون لتقديم التضحيات الكبيرة التي نؤمن بأن الله يحبها عند حلول وقتها؟

ثم كيف نرجو أن يبصرنا الله بأن هذه التضحية أو تلك محبوبة له أو غير محبوبة، إذا كنا لا نتقي الله في منكراتٍ نمارسها، مع أن التضحية بها أهون بكثير من التضحيات العظمىٰ الموصوفة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التَّوبَة: ١١١].

كيف نرجو منه أن يبصرنا وهو سبحانه القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]..بصيرةً في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل وما يحبه الله ويبغضه الله، تفرقون بها بين الحكمة والجبن، وتفرقون بها بين الشجاعة والتهور.

وكيف نرجو منه تعالىٰ أن يهدينا إلىٰ سبل التضحية التي ترضيه إذا كنا لا نجاهد أنفسنا في المنكرات ونحن نسمع قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]..فإذا جاهدنا أنفسنا وشهواتنا في الله تعالىٰ فإنه سبحانه بفضله يبصرنا بطرق التضحيات التي تبوئنا مكانة العزة والكرامة في الدنيا والجنة في الآخرة.

الذي لديه نفاقٌ لا يدل حالُه في أيام الرخاء علىٰ نيته التضحية في سبيل الله:

كثيرا ما يتعذر المنافقون لأنفسهم بأنهم يتمنون في أنفسهم أن يجاهدوا لكن الفرصة غير مواتية. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]

فلو كان تمنيهم هذا صادقا لظهر في أعمالهم. لكنهم لما وَهَنوا أمام الشهوات مَرِضَتْ قلوبهم فأصبح خروجهم خطرا علىٰ المؤمنين الصادقين، لأن المنافق الذي استسلم للشهوات والشبهات لا يظن به أن يقف شجاعا عند الحاجة إلىٰ التضحيات. وحريٌّ به أن يستزله الشيطان ببعض ما كسب فينكص ويخلخل صفوف المؤمنين. لذا كَرِه الله انبعاثهم: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]

وقد جعل رسول الله ﷺ غياب النية الصادقة للجهاد أمارةً للنفاق: ((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علىٰ شعبة من نفاق))[1].

فَلْيَبْرأ المؤمن لنفسه من هذه الشعبة بأن يوطن نفسه علىٰ الاستعداد للتضحية في سبيل الله ويدعو الله تعالىٰ أن يهيئ له سبلها

---

١ مسلم (١٩١٠).

ويترك المعاصي التي تحول دونها. فإنه إن فعل ذلك فمات حتف أنفه بلغ المنازل العالية بعمل قلبه. قال رسول الله ﷺ: ((من سأل الله الشهادة من قلبه صادقا بلغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه))[١]

وقال عليه الصلاة والسلام: ((إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم)). قالوا: «يا رسول الله وهم بالمدينة؟» قال: ((وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر))[٢] ..

فهؤلاء تمنوا صادقين أن يجاهدوا في غزوة تبوك لكنهم ما استطاعوا لمرض أو انعدام الإمكانيات المادية، فأثابهم الله الكريم ثواب المجاهدين لصدقهم، لأنهم لما لم يجدوا ما ينفقون تولوا وأعينهم تفيض من الدمع... فهم تشتاق أرواحهم إلىٰ ساحات التضحية في سبيل الله تعالىٰ.

بينما الذم هو للمنافقين الذين توفرت لديهم أسباب البذل في سبيل الله فرضوا بالدنية.. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]

فاللهم ارزقنا شهادة في سبيلك وقَبْلها نية صادقة نبرأ بها من النفاق.

---

١ مسلم (١٩٠٩) وأبو داود (١٥٢٠) والترمذي (١٦٥٣) وابن ماجة (٢٧٩٧).
٢ البخاري (٤٤٢٣).

(٨)
ثِقَلُ العبادات على النفس

وهذه أيضا لها ارتباط بصفة الشك في الدين عند المنافق، وتزداد كلما ضَعُفَ اليقين. فالمحافظة عليها تحتاج يقيناً. قال الله تعالىٰ:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البَقَرَة]

و(يَظُنُّونَ) في هذه الآية بمعنىٰ يوقنون كما في آيات عديدة أخرىٰ.

فالصلاة ثقيلة، إلا علىٰ الذين يوقنون بيوم آخِر يلاقون فيه ربهم فيجزيهم علىٰ صبرهم علىٰ تكاليف الصلاة جزاء عظيماً.

أما المنافقون فإنهم يَشُكُّون في هذا اليوم الآخر أو لا يصدقون به أصلاً، فثقلت عليهم الصلاة لذلك. ففيها تفريغُ أوقات واستيفاءٌ لشروط لصحتها وانقطاعٌ عن التفكير بالدنيا التي لا يؤمنون إلا بها. قال رسول الله ﷺ: (إن أثقل صلاة علىٰ المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر. ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلىٰ قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)[1].

---

١ البخاري ح٦١٧ (٣/ ٤٦) ومسلم ح١٠٤١ (٣/ ٣٨٠)

ولماذا صلاتا العشاء والفجر؟ لأن المنافقين لا يراهم فيهما إلا الله تعالىٰ! هم في غيرهما من الصلوات يدفعهم إلىٰ المساجد تجنُّب الإحراج مع المؤمنين، كما أنهم مستيقظون في أوقات هذه الصلوات علىٰ كل حال. فلا بأس والحال كذلك أن يُصَلوا... فإن كانت آخرةٌ وجنة ونار فلم يخسروا شيئا بصلواتهم هذه! أما العشاء والفجر، فوقتا عتمة، قد يصعب أن يميزهم فيهما المؤمنون أَحَضَروا أم غابوا. ثم في هذين الوقتين لا بد من التضحية بالنوم، وساعة نوم أهم عند المنافق من جنة عرضها السماوات والأرض! فالجنة عنده «محتمَلة» وليست باليقين الذي يضحىٰ من أجله! ولَأَنْ يعيش في أحلام سعيدة أحب إليه من أن يقوم ليعمل في سبيل غيب يشك فيه!

(ولو يعلمون ما فيهما) لو كانوا يوقنون بالمعاد وحسن الجزاء... لأتوهما ولو حبوا...كما هو حالهم في شأن الدنيا... يَحْبون خلفها علىٰ الأيدي والأرجل بل ويلهثون لأدنىٰ عَرَضٍ فيها.

قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

(والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء)[1].

---

١ البخاري (٦٤٤).

فالمنافق لو علم أنه بإتيانه المسجد يكسب عظمة عليها قطعة لحم سمينة (عرقا سمينا) أو حتىٰ ما بين ظلفي الشاة من اللحم (مرماة) لأتىٰ العشاء! أما جنة عرضها السماوات والأرض فلا تفعل في نفسه مقدار ما تفعله قطعة لحم صغيرة!

وفي أيامنا هذه... فكر... ماذا يكون حال مسجدٍ في حيٍّ مكتظ بالسكان تدخله عشاءً وليس فيه إلا صفان أو ثلاثة...ماذا يكون حاله لو أُعلن أن بعد الصلاة «طبيخـًا» فاخراً أو أن مبلغا من المال سيوزع علىٰ الحاضرين؟ كم من الخلق يحضر؟

ولا يعني هذا أن كل من لم يحضر صلاة الفجر في جماعة فهو منافق، لكن الأمر كما ذكرنا في المقدمة درجات. فمن حرص علىٰ صلاة الجماعة فقد استبرأ لنفسه من النفاق من هذه الناحية. ويجدر التنبيه هنا إلىٰ أن هذا لا ينطبق علىٰ أصحاب الأعذار بما فيهم من ألجأتهم أحوال بلادهم والملاحقات الظالمة إلىٰ التواري عن الأنظار.

وفي المقابل، هناك أناس في زماننا يمتهنون المواظبة علىٰ الصلوات لرصد المصلين وتتبُّع عوراتهم. فالذي يأتي بهم للصلاة ليس الأجر المنتظر من الله، بل متاعٌ من الدنيا هو كالعَرق السمين والمرماتين الحسنتين!

حسن أداء الصلاة مقياس الإيمان من النفاق:

فالمؤمن يقوم إلىٰ الصلاة بنشاط، مخلصا، حريصا علىٰ الصلاة في الجماعة، ويطمئن في أدائها. وأما المنافق فهذه الصفات عنده معكوسة كما يلي:

أ) المنافق لا يحرص علىٰ الجماعة:

للحديث الذي أسلفنا ولقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من سره أن يلقىٰ الله غدا مسلما فليحافظ علىٰ هؤلاء الصلوات حيث ينادىٰ بهن. فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدىٰ، وإنهن من سنن الهدىٰ. ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلىٰ مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتىٰ به يهادىٰ بين الرجلين حتىٰ يقام في الصف))[1].

فانظر كيف أن الصحابة كانوا يحرصون علىٰ أدائها في جماعة،

---

١ مسلم (٦٥٤).

حتىٰ المريض المعذور منهم، فيأتي الجماعة متكئا علىٰ رجلين ما يستطيع أن يمشي وحده لمرضه أو كبر سنه.

ب) المنافق يكسل عن الصلاة:

فإنك لَتَسمع من يتعذر لنفسه عن ترك الصلاة بأنه لا يجحدها وإنما هو الكسل! ولا يعلم أنه بقوله هذا شابَهَ المنافقين! فهو إن نجا من الكفر علىٰ قول من لا يرىٰ بكفر تارك الصلاة، فقد وقع بتركه الصلاة كسلاً في خصلة من خصال النفاق. قال الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[النساء: ١٤٢]

فقول أحدهم: «أتركها كسلاً» إدانة له لا عذر. فالمنافقون قاموا أحيانـًا إلىٰ الصلاة كسالىٰ. أما هو فقد أقعده الكسل فما قام أصلاً!

فإن قيل: «لكن في الآية صفة أخرىٰ ألا وهي أنهم يراؤون الناس، بينما الذين يتركون الصلاة كسلاً كثير منهم إذا نشطوا للصلاة أحيانـًا لم ينشطوا لها رياء»..فنقول: نعم، لكنهم حين يكسلون يكونون مشابهين في كسلهم للمنافقين. فليبرؤوا لأنفسهم من هذه المشابهة.

ج) المنافق يرائي في صلاته:

فقد قال الله تعالىٰ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ... وهذا الرياء في الصلاة مرض خفي يظهر بدرجات متفاوتة. فقد لا يكون الدافع إلىٰ الصلاة ابتداء الرياء عند بعضنا، لكنه يُحَسن الصلاة إذا كان بين الناس أكثر مما إذا خلا بربه عز وجل. وقد يكون هذا لنشاطٍ في العبادة يحس به المسلم بين إخوانه، وفي المقابل قد يكون أحيانًا من الرياء.

د) المنافق لا يتأنىٰ في صلاته:

قال رسول الله ﷺ:

((تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان (أي: قاربت علىٰ الغروب) قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا))[1].

وكم ترىٰ من المسلمين إسراعا في الصلاة فلا يطمَئِنُّون بين السجدتين ولا بعد القيام من الركوع.

---

١ مسلم (٦٢٢).

الصلاة في الجماعة بالمسجد سببٌ في تمايز المؤمن عن المنافق في الآخرة:

فقد قال رسول الله ﷺ:

((بشر المشائين في الظُّلَم إلىٰ المساجد بالنور التام يوم القيامة))[1].

فهذا النور التام هو الذي سيمكنهم من العبور علىٰ الصراط مُخَلِّفين وراءهم المنافقين بلا نور:

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]

مشوا في ظلمات الليل فأثابهم الله تعالىٰ نورا يوم تشتد الحاجة إلىٰ النور.

وفي المقابل:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ

---

١ رواه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وابن ماجة (٧٨٠)، وابن خزيمة (١٤٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٨)، وقال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين» ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣]

يريدون التطفل علىٰ المؤمنين ونوال الجنة بلا عمل! لكن هيهات..اكتسب المؤمنون النور بمشيهم في الظُّلَم. أما أنتم أيها المنافقون فعلىٰ أي شيء تُمنحون النور؟! ارجعوا فالتمسوه في شككم وريائكم وكسلكم..طالب اللؤلؤ في رمال الصحراء.. فيُضرب السور وتنجلي الحقائق وتجزىٰ كل نفس بما كسبت..

ترك الجمعة سبب في دخول النفاق إلىٰ القلب:

فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله علىٰ قلبه وجعل قلبه قلب منافق))[1] .

والطبع علىٰ القلب شرُّ عقابٍ دنيوي، فلا يعود صاحبه يستقبح معصيته. فأنَّىٰ له إذن أن يتوب؟!

المنافق يستثقل عبادة الزكاة:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ

---

١ سبق تخريجه.

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] ...

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٦]

ولا غرابة... فالزكاة والصَّدَقة عند المنافق خسارة محضة، إذ هو لا يؤمن بجزائها الأخروي. لذا ترىٰ أن رسول الله ﷺ جعل الصدقة برهانا علىٰ صحة الإيمان فقال:((...والصدقة برهان))[1].

وكما أنها برهان علىٰ الإيمان فإنها تزيده كذلك. فالمؤمن حين يهم بإخراج الصدقة يستجمع إيمانه ويستذكر الآخرة ليقاوم تخذيل الشيطان. فيزداد إيمانا وثباتا بذلك. قال الله تعالىٰ:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

كيف تتخلص من استثقال العبادات؟

بالإكثار من ذكر الله تعالىٰ. فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب.

---

١ مسلم (٢٢٣).

فمن ضن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول: سبحان الله، والحمدلله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1]. فالبخل بالمال والخوف من مجاهدة العدو واستثقال قيام الليل أقرب إلىٰ النفاق منه إلىٰ الإيمان. وفيه شيء من نسيان الله تعالىٰ. ألم تر إلىٰ قوله عز وجل: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٧]

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ): أي يمتنعون عن إيصال الخير لغيرهم، ومنه الإنفاق في سبيل الله.

فلما نسوا الله ثقل عليهم الإنفاق في سبيله. (فَنَسِيَهُمْ) من رحمته، أي عاملهم معاملة المنسيين، فلا يوفقهم لخير ولا يدخلهم الجنة.

فمن علاجات هذا النسيان لله، والمؤدي إلىٰ ثقل الطاعات علىٰ النفس، من علاجاته ذكره سبحانه بالقلب واللسان، واستحضار مركزية طاعته في حياتك كمؤمن، ومركزية الدار الآخرة، وذكر الهدف من الحياة وسبب وجودك علىٰ هذه الأرض، وأنك راجعٌ إليه سبحانه، وذكر مرجعية شريعة الله وأمره ونهيه في كل جزئية من جزئيات حياتك.

---

١ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٥)، وأبو داود في «الزهد» (١٤٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٩٠) موقوفًا، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨٥٤): «رواه الطبراني موقوفا، ورجاله رجال الصحيح»، وقال الألباني: «صحيح موقوف في حكم المرفوع».

فمن سيطر عليه هذا الذكر نشط في الطاعات. قال ابن القيم رحمه الله: «للعبد ربّ هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه».

ومن علاجات ثقل الطاعات علىٰ النفس النظر في سير الأولين من الصحابة رضي الله عنهم، فبسيرهم ترتفع الهمم. وننصح في ذلك بقراءة كُتيبنا «بهم فاقتدوا».

(٩)
محبة أن يُمدح ويُحمد على أشياء لم يفعلها أصلاً

روىٰ البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلىٰ الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨][1].

فما اكتفىٰ المنافق بأنْ تكاسل عن الطاعات، بل يحب أن يمدحه الناس علىٰ أشياء لم يفعلها أصلاً، فيتظاهر ويتصنع ليُحمد بما لم يفعل.

وكثير منا نحن المسلمين هذه الأيام يكثر الكلام علىٰ مواقع التواصل بما يستوجب المدح، ويرسم لنفسه صورة مشرقة خلاف واقعه. فلْنتذكر حديث أسماء رضي الله عنها في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (المُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ). ولْنحذر من أن نقع بذلك في هذه الصفة النفاقية من حيث نشعر أو لا نشعر.

---

١ البخاري (٤٥٦٧) ومسلم (٢٧٧٧).

(١٠)
تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]

فأيما رجل أو امرأة دعا إلىٰ منكر وثبط عن طاعة فليعلم أنه تلبس بصفة من صفات المنافقين. أيما شاب دعا صاحبه إلىٰ معصية، أو خذَّله عن طاعةٍ محبوبة لله، فليعلم أن هذا نفاق..

وقال تعالىٰ في وصف المنافقين:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]

فهؤلاء المنافقون تخاذلوا عن الإنفاق لتجهيز جيش العسرة لكنهم سارعوا إلىٰ اللمز في المؤمنين! قعدوا يتربصون: فمن جاء بصدقة كبيرة قالوا إنما فعلها رياء، ومن جاء بصدقة صغيرة علىٰ فقر حاله ينتزعها من أفواه أولاده نصرة لدين الله سخروا من صدقته الصغيرةِ في أعينهم، الكبيرةِ في ميزان الله تعالىٰ.

كان أحدهم يرىٰ نفسه بين الجبال الشُّم..ولا يُسعفه شكه وكسله ليرتقي إلىٰ قممهم ويبني مجداً كالذي بَنَوه..فلا يرىٰ سبيلاً لتقليص

الفارق بينه وبينهم إلَّا أن يتطاول علىٰ من هم خير منه ويزدريهم لينزلوا إلىٰ مستواه في أعين الناس!

فيا مَن لم ترتقِ بنفسك في الطاعات وترك المنكرات، إياك أن تفرط في حرصك علىٰ ألا تنهىٰ الناس عن طاعة ولا تدعوهم إلىٰ معصية ولا تستهزئ بالطائعين. فذلك أرجىٰ لك عند الله أن يرحمك فيجبر نقصك في الدنيا والآخرة.

(١١)
الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين

وهذه بلية عظمىٰ تشل إرادة المنافق عن نصرة الدين. فهو يرىٰ أن قضية الدين خاسرة. فعلام يتعب مِن أجلها؟! قال الله تعالىٰ:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ [الفتح: ٦]

فالمنافق لما كانت حساباته أرضية ورأىٰ قوة الكفار وانتفاشهم، ظن أن الإسلام هالك وأن الله تعالىٰ لن ينصر دينه. وهذا ظن سوء يمقته الله. لذا كان جزاؤهم:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]

كلمات يظهر فيها شدة غضب الله علىٰ من أساء الظن فيه تعالىٰ بأن يظن أن الله يخذل دينه ولا يُظهره، وأن رسول الله وطائفة المؤمنين يهلكون في الحرب فلا تقوم للإسلام بعدهم قائمة. قال تعالىٰ بعدها بآيات:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح]

فالمنافق ينظر إلىٰ الكفار فيرىٰ لديهم قوة مادية ينخلع لها قلبه، ثم يلوي عنقه فينظر إلىٰ المؤمنين فلا يجد لديهم إلا عدة ضئيلة هي غاية ما استطاعوه، لكنهم مع ذلك مهللون مكبرون مستبشرون موقنون بنصر الله. فيضحك المنافق منهم قائلا: هؤلاء المساكين يعتقدون أن دينهم ينصرهم علىٰ أصحاب العدد والعتاد؟!..

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]

الشك في وعد الله سبب لكثير من صفات النفاق الأخرىٰ:

فالشاك في نصر الله تنهزم نفسيته وتخور عزيمته وتنشل إرادته.. خاصة إذا انضم إليه شك في اليوم الآخر الذي ينصر فيه الله عباده علىٰ أعدائه تمام النصر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

فتراه بعد ذلك ينكص عن التضحية في سبيل الله..فعلامَ يضحي إن كان الإسلام هو الخاسر عنده؟!

وتراه يَكذب علىٰ المؤمنين ليُعرضوا عنه ويدَعوه ينسحب من المواجهة مع الأعداء

وتراه يسارع في طاعة الكفار علىٰ حساب دينه..فهم الأقوىٰ في نظره

وتراه يُخلِف العهد مع الله تعالىٰ.. فهو كما شك في قدرة الله علىٰ نصر الدين يشك في عقوبة الله لمن نقض العهد.

أفعال سوء هي جميعـًا ثمارٌ مشؤومةٌ للشك في نصر الله.

قال الله تعالىٰ واصفا حال المنافقين أيام غزوة الخندق:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

شكّوا في وعد الله ورسوله بالنصر..

فإلىٰ ماذا قادهم هذا الاعتقاد الفاسد؟:

١. ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ .. فنُكوصٌ عن الجهاد والتضحية في سبيل الله.

٢. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾.. فكَذِبٌ علىٰ المؤمنين.

٣. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾..فجُبْنٌ وخَوَرٌ.

٤. ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾[1] ..فمسارعة في الكفر وطاعة الكفار وعدم ثبات علىٰ المبدأ.

---

١ أي: لو دُخِلَتْ المدينةُ علىٰ هؤلاء القائلين (إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ) من جوانبها ونواحيها ثم طُلب منهم الرجوع من الإسلام إلىٰ الشرك لفعلوا ورجعوا عن الإسلام وأشركوا، ولَـمَا توقفوا عن الاستجابة لهذا الطلب إلا قليلا.

٥. ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب]

... فإخلاف عهد مع الله تعالىٰ.

قال ابن كثير في وصف حال المنافقين في غزوة الأحزاب عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾:

«أَمَّا الْمُنَافِقُ، فَنَجَمَ نِفَاقُهُ -أي: ظهر نفاقه وانكشف-، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ أو حَسِيكَة - أي: حِقد -، ضَعُف حَالُهُ فَتَنَفَّسَ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ وَشِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ» اهـ. وصدق. فقد قال معتب بن قشير المنافق: (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يقدر علىٰ أن يذهب إلىٰ الغائط)[1].

وانظر كيف لم يجعل ابنُ كثيرٍ المنافقين ومرضىٰ القلوب علىٰ درجة واحدة. فمنهم من كان منافقًا صرفًا ظهر نفاقه، ومنهم من كان ضعيف الإيمان هو أقل سوءاً من المنافقين الخُلَّص لكن أظهرت شدة الموقف ما بقلبه من مرضٍ وقلة يقين.

---

١ سيرة ابن هشام

المؤمن لا يشك في نصر الله تعالىٰ:

فالحبيب المصطفىٰ ﷺ كان يبشر المؤمنين بفتح البلاد وهو في هذا الوضع الصعب في يوم الخندق، يقينا بوعد الله الذي أنبأه بما سيكون من فتحها. لذا قال الله في سورة الأحزاب بعدما ذكر حال المنافقين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ...وقال في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

فلا يأس مع الإيمان. ألم تر إلىٰ قوله تعالىٰ حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]

وقوله تعالىٰ حكاية عن يعقوب عليه السلام:

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]

وكذا قال ابن مسعود تلميذ محمد ﷺ:

((الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله)) أي: اليأس من نصر الله.

فهذا الدين منصور...يضعف أهله لفترة من الزمن بمقدار تفلتهم

منه. لكنه لن يُجتَثَّ ولن يندرس. ولن تهلك أمة محمد ﷺ. والذي يحاول القضاء علىٰ الإسلام أَسْفَهُ ممن ينقطع جوفه ويحمر وجهه وهو ينفخ علىٰ الشمس ليطفئ نورها!: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]

فهذا الدين منصور. قال عليه الصلاة والسلام: ((بشر هذه الأمة بالسناء والتمكين في البلاد والنصر والرفعة في الدين. ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة نصيب))[1] . فالذي يعمل بعمل الآخرة من أجل الدنيا كأنه أحس بأن قضية الدين خاسرة فلا حاجة إلىٰ التضحية من أجلها. فقال: «إذن أكسب بهذا العمل مكانة عند الناس لأنال شيئا بدلا من الخروج صفر اليدين»!

وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار. ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين. بعز عزيز أو بِذُل ذليل: عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يُذل به الكفر))[2] .

---

١ أخرجه أحمد (٢١٢٢٠)، والشاشي في «مسنده» (١٤٩١)، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٢)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

٢ رواه أحمد (١٦٩٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٣٢٦)، وقال: «صحيح علىٰ شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وصححه الألباني.

فإلىٰ كل من لا زال في شك من وعد الله بنصر دينه بعد هذا كله:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ ... أي: من كان سيئ الظن بالله، فيظن أن الله سيخذل دينه ونبيه... ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ .. فليربط حبلا علىٰ عنقه ويربط طرفه الآخر بسقف بيته (فما علاك فأظلك فهو سماء)..

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]

لِيخنق نفسه ويقطع عنها الهواء فيموت! أو ليقطع حبلاً ممدوداً بحيث يهوي إلىٰ الأرض فيتحطم.. فإن كان وعد الله لا يشفي صدر المنافق من الشك والهلع ولا يشفيه من الغيظ أنه في زمرة المسلمين الذين لا يراهم منصورين، ولا يقطع أمل الكافر في القضاء علىٰ الإسلام وغيظَه منه، فلينظر المنافق والكافر إذا كان فعله هذا يمكن أن يُذهب الغيظ ويفي بالغرض!

قال ابن عاشور:

«ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلىٰ فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلىٰ الكفر فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومُرتابين في نَيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدينَ وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم ،

ولعلّ هؤلاء من المنافقين».

وأشار السعدي إلىٰ معنىٰ لطيف آخر فقال:

«ومعنىٰ هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول -إن كان ممكنا-. ائت الأمر من بابه، وارتق إليه بأسبابه. اعمد إلىٰ حبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتىٰ تصل إلىٰ الأبواب التي ينزل منها النصر، فسُدَّها وأغلقها واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك. فهذا هو الرأي والمكيدة. وأما ما سوىٰ هذه الحال فلا يخطرْ ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق. وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفىٰ، ومن تأييس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، أي: وسَعَوا مهما أمكنهم».

فمعنىٰ كلام السعدي أن في الآية إشارة إلىٰ أنه لا أحد يستطيع قطع النصر عن المؤمنين، إذ هو يتنزل من السماء.

إن ربي لطيف لما يشاء:

فإن كنت يا أخي من المؤمنين لكنك يهولك ما ترىٰ من انتفاش الباطل وتسلط أهله ولا يستوعب عقلك كيف يمكن أن ينصر الله دينه مع أن الأسباب المادية ليست في صالح الدين البتة فأقول لك ليطمئن قلبك:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف]

...أي: إذا أراد أمراً قيَّضَ له أسبابًا وقدَّره ويسره بطريقة لطيفة لا تخطر بالبال. فمِن كرب شديد إلىٰ فرج عجيب، ومن ضعف إلىٰ عزة وتمكين.

فهذه الآية تحكي ما قاله يوسف عليه السلام الذي نقله الله من ظُلمة السجن إلىٰ مكانة عِزٍّ ومجدٍ وتصرُّفٍ وحكم يتبوأ من الأرض حيث يشاء، برؤيا أُريَها الملك!

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وهو سبحانه بعد ذلك جعل فرعون يلتقط موسىٰ من تابوت في البحر ويربيه في بيته ليكون هلاك فرعون وجنوده علىٰ يد موسىٰ عليه السلام!

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وهو سبحانه الذي ألقىٰ الإيمان في قلب نُعيم بن مسعود يوم غَدَرَ بنو قريظة وحوصر المؤمنون من فوقهم ومن أسفل منهم فخَذَّل نُعيم

بين المشركين واليهود.. ثم أرسل الله ريحا وكفىٰ المؤمنين القتال

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وهو سبحانه الذي جعل «فاطميي» مصر يقتتلون فيستنجد بعضهم علىٰ بعض بنور الدين زنكي فيرسل صلاح الدين، لتبدأ رحلة تطهير مصر منهم وتنضم مصر المعادية إلىٰ دولة صلاح الدين فيحارب بها الصليبيين!

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وهو سبحانه الذي جعل التتار يبيعون سيف الدين قطز في السبي بدراهم معدودة ليكون هلاكهم علىٰ يديه![1]

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وهو سبحانه الذي جعل دولاً «عظمىٰ» تحاول استخدام بعض المسلمين لحرب الدول المنافسة لها، ثم إذا بها تسيخ أقدامها في رمال بلاد المسلمين هؤلاء حتىٰ تضطر بعد عشرين عاماً للخروج بطريقة مهينة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾

وغير ذلك كثير. يمكر الكافرون فينقلب مكرهم عليهم، ويكون هلاكهم فيما ظنوه قُوَّتَهم:

---

١ ذكر منصور عبد الحكيم في كتابه « السلطان سيف الدين قطز بطل عين جالوت وقاهر المغول» أن «قطز» هو اسم أطلقه التتار عليه حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم إياه وهو صغير، ومعنىٰ قطز باللغة المغولية «الكلب الشرس».

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

يكيدون كيدا بشريا هزيلا في مقابل كيد جبار السماوات والأرض سبحانه وتعالىٰ:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق]

ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله فتنقلب عليهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]

فلا تشغل نفسك بـ «كيف يمكن أن ينصر الله دينه؟» ولكن اشغل نفسك بأن تكون من الطائفة المنصورة العاملة لهذا الدين وأن تأخذ بأسباب النصر إلىٰ أقصاها.. فيكون لك شرف الإسهام في نصر الأمة ولو كان هذا النصر بعد مماتك. جعلني الله وإياك منهم.

وننصح بقراءة كتابنا «بشائر» لنفي اليأس والإحباط والشك في وعد الله بالنصر للمؤمنين. فهذا كله ليس من صفات المؤمنين.

(١٢)
الحرص على الدنيا والتسخط عند البلاء

فالمنافق يشترط أن يجلب الإسلام له منفعة دنيوية عاجلة ليرضىٰ به دينا. كيف لا وحدود بصيرته تقف عند المعاني الدنيا للدنيا، والجزاء الأخروي ليس في حساباته لأنه يشك في الآخرة أصلا. قال تعالىٰ واصفا المنافقين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] ..

فقال الموتور المنافق للنبي ﷺ: «يا رسول الله اعدِل»! قالها جشعا وتطلُّعا إلىٰ ما ليس له بحق... وهكذا المنافق، يرضىٰ عن الدين بمقدار ما يتحقق له من متاع دنيوي، لأنه ما أسلم طمعا في رضوان الله ومَعِيَّته في الدنيا وجزائه الأوفىٰ في الآخرة.

روىٰ البخاري عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]..قال: «كان الرجل يقدم المدينة، فإنْ ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: «هذا دينٌ صالح»، وإن لم

تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: «هذا دينُ سوء»»![1]

فالمتعوس اعتبر تحقُّق متاع الدنيا دلالة علىٰ صحة الإسلام، فإذا تعرض لابتلاءٍ اعتبر ذلك دلالة علىٰ بطلان الإسلام!! فأي ضيق في الأفق ومحدودية في النظرة!!

وكم نرىٰ في واقع حياتنا من أناس يتسخطون علىٰ ربهم عند أدنىٰ بلاء، وتسوء منهم بالله الظنون. فهؤلاء مدعو عليهم بالتعاسة. قال رسول الله ﷺ: ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة[2]؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش[3]))[4].

فعبد الدرهم والدينار يتنقل بين المبادئ والمنهجيات بحثا عن المال والمنصب والجاه. وقد لا ينسلخ من الإسلام صراحة بل يغير ويبدل بهواه ويزعم أن ما هو عليه موافق للإسلام.. يلهث وراء بريق الحياة علىٰ يديه ورجليه، فلعل الأشواك تدخل في يديه ورجليه في سعيه هذا...وإذ ذاك فـ(لا انتقش) ...أي لا خرجت منه الشوكة.

في المقابل يدعو ﷺ في تتمة الحديث للمؤمن عبدِ الله، لا عبدِ

---

١ البخاري ٤٧٤٢

٢ الخميصة: نوع من الثياب.

٣ وإذا شيك فلا انتقش: دعاء عليه إذا أصابته شوكة ألا يقدر علىٰ إخراجها.

٤ البخاري (٢٨٨٦).

الدنيا فيقول:

((طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع))

فقد بدت علامات التضحية في سبيل الله في شَعَثِ رأس هذا المؤمن وتغبُّر قدميه وإمساكه بعنان الفرس ليتوجه به حيثما سمع نداء الجهاد، لكنه مع ذلك لم ينل شيئا من الدنيا، ولا حتىٰ الاحترام من بعض من ينبغي منهم احترامه!..فهو إنْ استأذن لم يؤذن له، وإن جاء شفيعا لأحد رُدَّ مخذولاً ولم يُلتفت إليه ولا لشفاعته، إذْ ليس له مكانة عند الناس ولا هو معروف بينهم..

فهل دفعه ذلك إلىٰ أن ينقلب علىٰ عقبيه ويترك الجهاد والتضحية؟ لا بل علىٰ العكس، يفعل ما فيه مصلحة المسلمين..فإذا أُمر بأن يسهر للحراسة والناس نيام استجاب ووقف حارسًا أمينا لجيش المسلمين..وإذا أُمر بأن يتأخر في ذيل الجيش (الساقة) يجمع المتاع الساقط من أفراد الجيش ويساعد من أبطأ لِعَطَبٍ فيه أو في ركوبته امتثل الأمر.. وليس ذلك كله عن نقص عزة في نفسه! أبداً! ولكن لأن هذا المؤمن لا يتعامل مع البشر وإنما مع رب البشر سبحانه وتعالىٰ.. ولا يبتغي الأجر والإكرام من البشر وإنما يبتغىٰ وجه ربه الأعلىٰ.. فلسوف يرضىٰ...فالنبي ﷺ دعا له بـ(طوبىٰ)، وهو دعاءٌ له بالجنة.

هكذا المؤمن، يقدم ويضحي، ولا يسخط إنْ لم يعجل الله له ما

يريد في الدنيا وادخر له جزاءه الأوفى ليوم القيامة...

أما المنافق، فلا يريد أن يقدم شيئا إلا إذا كان هناك مقابل مادي دنيوي! قال تعالىٰ:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ١٥]

فهؤلاء تخلفوا عن عمرة الحديبية التي وعد الله من شهدها بمغانم خيبر..فلما علموا أن خيبر ستُفتح علىٰ المسلمين سارعوا يطالبون بالسماح لهم أن يشهدوا غزوة خيبر! لماذا؟ لأن فيها الغنيمة! أما في الحديبية فلم يكُ ثمة غنيمة دنيوية موعودة فما حرصوا عليها.

فرد الله تعالىٰ عليهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾

فالله وعد مغانم خيبر لأهل الحديبية خاصة. ثم قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾

سيرْمُون المؤمنين بتهمة أنهم يمنعونهم من الخروج إلىٰ خيبر استئثارا بالدنيا عنهم. فرد الله تعالىٰ بوصف هؤلاء المخلفين أنهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .. ثم أعطاهم الله تعالىٰ فرصة أخرىٰ ليُعَدِّلوا نواياهم ويبرهنوا علىٰ استعدادهم للتضحية دون ضمان المقابل الدنيوي فقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦]

.. قال الطبري في تأويل الأجر الحسن أنه الجنة. وكأن الله تعالىٰ لم يضمن الغنيمة الدنيوية في هذه الفرصة للمخلفين كما ضمنها في خيبر للمؤمنين. فإنْ كان هؤلاء المخلفون يرضون بالجنة برهنوا علىٰ ذلك بطاعة الله في النفير إلىٰ القوم أولي البأس الشديد. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]

لأن ذلك يكشف عن حقيقة أنكم لم تتوبوا وتصلحوا ما في قلوبكم.

وذَكَر رسول الله ﷺ بائعي الدين من أجل الدنيا بقوله:

((بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرَضٍ من الدنيا))[1].

عدم الاستعداد لتحمل الأذىٰ في سبيل الله:

ومن كان هذا حالَه في اشتراط المنفعة الدنيوية ليرضىٰ بالإسلام دينًا فلن يكون علىٰ استعداد لتحمل الأذىٰ في سبيل الله. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]...

فدعوىٰ الإيمان باللسان سهلة. لكنهم لما أوذوا في سبيل الله

---

١ رواه مسلم (١١٨).

الذي ادعوا الإيمان به تزلزلت قلوبهم وتركوا الدين الذي ادعوه، لأن قلوبهم المريضة عظمت من شأن هذا الأذىٰ الدنيوي كأنه مساوٍ لعذاب الله الشديد في الآخرة! فاختاروا التنكر للإسلام ليسلموا من أذية الدنيا ولو أدىٰ ذلك بهم إلىٰ عذاب الله. وليست المسألة أنهم دفعوا عن نفسهم الأذىٰ بينما قلوبهم مطمئنة بالإيمان. فذلك أمرٌ مأذون به من الله الرحيم. وإنما هم تنكروا للإسلام بقلوبهم.

وَلَيْتَهم وقفوا عند هذا الحد، بل: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ [العنكبوت: ١٠]...فإذا ارتفعت الأذية وتحقق للمسلمين نصر عاد هؤلاء المنافقون إلىٰ دعوىٰ الإيمان لينالوا نصيبا من هذا الخير الدنيوي! يخادعون الله والذين آمنوا... فقال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت]

فلا تزال البلايا تصيب الناس ليُعرَف بها المؤمن من المنافق. قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

المنافق بنظرته الدنيوية الضيقة لا تتطلع نفسه إلىٰ آفاق الآخرة والحياة الأبدية فيها. فلا يرضىٰ بالعهد الذي عاهد عليه الله عباده المؤمنين إذ قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١].

المنافق يسيء الظن بربه عند البلاء:

وأود هنا أن أنقل عبارات عظيمة لابن القيم يصف بها داء سوء الظن بالله، وهذا الداء قرين النفاق في قلوب لم تعرف حق ربها عز وجل، فافترضت أن لها علىٰ الله «واجبات». فإن أُنقصت شيئا من هذه الـ «واجبات» ساء ظنها بربها، وخرج ما كان في هذه القلوب من قيح وصديد فظهر علىٰ فلتات الألسن. ولا والله لا يكون هذا من قلبٍ صفا وُدُّهُ لربه وعَظَّم قدره.

قال ابن القيم:

(فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه..وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر علىٰ التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأىٰ ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد. فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده. ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتُّبا علىٰ القدر وملامةً له واقتراحًا عليه خلاف ما جرىٰ به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا! فمستقل ومستكثر. وفتش نفسك هل أنت سالمٌ من ذلك؟

فإن تَنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

فَلْيَعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وَلْيَتُب إلىٰ الله تعالىٰ وَلْيَستغفره كلَّ وقتٍ من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوىٰ كل سوء ومنبع كل شر.. فهي أولىٰ بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنىٰ التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه.. وأفعاله كذلك كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل وأسماؤه كلها حسنىٰ

فلا تظنُنْ بربك ظن سوء فإن الله أولىٰ بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جان جهول
وقل يا نفس مأوىٰ كل سوء أيرجىٰ الخير من مَيْت بخيل
وظن بنفسك السوآىٰ تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقىٰ فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا منها ولكن من الرحمن فاشكر للدليل[1]

فقول ابن القيم: (فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده) يعني به أن من عنده هذه الصفة النفاقية إن وُضع علىٰ المحك بتعرضه لاختبار، فإن سوء ظنه بالله وجزعَه وقلةَ صبره ستظهر في سلوكاته وعلىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه.

---

١ من زاد المعاد بتصرف

أما المؤمن فإنه يثبت عند الشدائد، وهذا الثبات رزقٌ يرزقه الله من كان يتقيه في أيام الرخاء. قال رسول الله ﷺ:

((تعرَّفْ إلىٰ الله في الرخاء يعرفك في الشدة))[1].

والمنافقون ما اتقوا الله في رخائهم فما ثبَّتهم عند الشدة.

وننصح بقراءة كتابنا «حسن الظن بالله»، فهو بإذن الله نافع في إعانة المؤمن علىٰ الرضا بقضاء الله وقدره وحسن ظنه بربه عند البلاء.

نسأل الله الرضا عند القضاء والثبات في الأمر وإذا أراد فتنة في القوم أن يقبضنا إليه غير مفتونين.

---

١ أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤١)، وفي «المعجم الكبير» (١١٢٤٣)، وصححه القرطبي في تفسيره، وعبد الحق الإشبيلي في «الأحكام الشرعية الكبرىٰ» وفي «الوسطىٰ»، وأحمد شاكر، والألباني في «ظلال الجنة» (٣١٨)، وشعيب الأرنؤوط.

(١٣)
الجبن والقبول بعيشة الذل

لا عجب أن يَجْبُنَ المنافق. فشكه في الله وفي الدار الآخرة يمنعه من استمداد العزة من رب العزة سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون].

والمنافق في ذلك أذل من بعض الكفار والمبطلين الذين يدافعون عن مبادئ ويوهمون أنفسهم بصحتها فتكون- علىٰ بطلانها- رمزا لهم يستمدون منه القوة. أما المنافق فلا مبدأ له...فلا هو كسب العزة الحقيقية في كنف الله عز وجل، ولا العزة الموهومة من المبادئ الباطلة. ولذا تراه يعيش حالة رعبٍ مستمرة، يظن في كل لحظة أنه مأخوذ بجريرة السوء الذي تنطوي عليه نفسه:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]

تماما كالجاني المُخفي لجريمته يسير في الطرقات وكلما سمع صيحة ظنها النهاية.

والمنافق ممزق النفس...فهو يعيش بين المسلمين ولا يأمَنُهم أن يكشفوا حاله فيحلف لهم أنه معهم قلبا وقالبا:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة] ... أي: يخافون منكم أيها المؤمنون. ثم قال

تعالىٰ: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة].

أي: يتمنىٰ المنافقون لو يفرون من المؤمنين إلىٰ مكان يلتجئون ويعتصمون به أو إلىٰ مغارةٍ في جبل أو سرداب أو نفق في الأرض..كل هذا ليتخلصوا من حالة الذعر المستمر..لكنهم لم يفروا..لماذا؟ لأن معايشهم وأموالهم وأهليهم في الأماكن التي فيها المؤمنون..

وتأمل معي حرص المنافق علىٰ أية حياة..حتىٰ ولو حياة ذل ومهانة..لا بأس، المهم أن يعيش! حتىٰ ولو في مغارة أو مُدَّخل (أي سرداب) مظلم تحت الأرض..هناك مع الخفافيش في الظلام.. لا بأس..فلقد تعَوَد علىٰ حبك المؤامرات علىٰ المسلمين في الظلام كالخفافيش، وتعود علىٰ مصارحة إخوانه المنافقين بشكه في الدين واستهزائه بالمؤمنين خفية كالخفافيش..وقلبه مظلم من النفاق كظلمة الأنفاق..فلم لا يعيش مع الخفافيش؟!

ثم تأمل معي حال هذا المنافق الذي لم يَبْقَ مع المسلمين إلا حرصا علىٰ الدنيا..تأمل حاله إذا أُخبر بأن عليه الاستعداد لخطر من الخارج يدهم المسلمين! سيزداد تمزق قلبه وحيرته. قال الله تعالىٰ واصفا حالهم في هذه اللحظات: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [محمد: ٢٠]

ذعر ما بعده ذعر! يصيب عند التضحيات كلَّ مَنْ مَرِضَ قلبُه بالشك في الدين والحرص علىٰ عيشة الذل.

ضريبة الذل:

فليعلم كل من وجد في نفسه رضـًا بالجبن والمذلة أنه مشوب بالنفاق...وهذا للأسف حال كثيرين اليوم، يحرصون علىٰ حياة، أية حياة.. ويخافون من أداء حقوق الله في موالاة المؤمنين والتبرؤ من الكافرين والمنافقين وإظهار البراءة منهم..كل هذا حرصـًا علىٰ الحياة، وبئست الحياة حياة الذل:

ذَلَّ من يغبط الذليل بعيش ... رُبَّ عيش أخف منه الحِمام[1]

من يَهُن يسهلِ الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

لا يُدرك هؤلاء أنهم إنْ لم يؤدوا ضريبة الكرامة مأجورين عزيزي النفوس فإنهم سيؤدون ضريبة الذل لا محالة موزورين ذليلين. ومن

---

١ أي: الموت

أجمل ما قرأت في ذلك قول سيد قطب رحمه الله:

(إن للذل ضريبةً كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل أفدح في كثير من الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليُخَيَّلُ إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة.. تخاف من ظلها وتفرق من صداها.. يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس علىٰ حياة.

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة.. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة.. يؤدونها من نفوسهم ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سُمعتهم ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون.

إنه لابد من ضريبة يؤديها الافراد وتؤديها الجماعات وتؤديها الشعوب..فإما أن تؤدَّىٰ هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية، وإما أن تؤدَّىٰ للذلة والمهانة والعبودية. والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التي لا مفر منها ولا فكاك) انتهىٰ كلامه رحمه الله.

ومن هنا فإن من أكبر الجنايات علىٰ الإسلام محاولةَ إيهام الناس بأن دينهم يرضىٰ لهم الذل..وهذه الجناية كثيرا ما تُمارس هذه الأيام من أناس أوتوا نصيبا من كتاب الله والعلم بأحاديث سيد الشرفاء ﷺ. حتىٰ إن السامع لهم ليُخيل إليه أنهم اطلعوا علىٰ وحي نسخ آيات وأحاديث العزة!

فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين:

إن اللغة الكسيرة الذليلة التي يُربَّىٰ عليها المسلمون في أيامنا أماتت معنىٰ كثير من الآيات والأحاديث في قلوبهم. فأين قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]

وإن لم يكن ديننا دين العزة والشجاعة فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وإن لم نكن مأمورين بالشجاعة والحزم في إنكار المنكر فلمن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]

وإن كانت إقامة الشعائر كافية مع ذل النفوس فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]

فإلىٰ كل من ادعىٰ أنه علىٰ منهاج النبوة.. إياك أن تُلبس منهاج النبوة ثوب المذلة بِلُغَتك الكسيرة! فسيد الشرفاء ﷺ هو القائل: (أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ)[1].

---

١ أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٢٧٢)، وأحمد (١١٠١٧)، وابن ماجه (٤٠٠٧) وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

وسيد الشرفاء ﷺ هو الآمر بإنكار المنكر ومجاهدة المبطلين باليد واللسان والقلب، وقد نفىٰ الإيمان عمن لم يجاهدهم بقلبه كحد أدنىٰ...نعم لهذا كله قواعد، لكن دون إماتة للنصوص وإيهام أن الله يرضىٰ لأوليائه الذل سبحانه، ودون إشاعة مبدأ (الدنية ولا المنية)، ودون إيثار منهج السلامة علىٰ سلامة المنهج، ودون أن نتيح الفرصة للمبطلين أن يصفوا ديننا بأنه يخدر عن المطالبة بالحق ومقارعة الظلم، ودون أن نَنْحط بالمسلمين ونقتل مروآتهم إلىٰ حد نتمنىٰ فيه نخوة أبي طالب والمطعم بن عدي!

ولو فقه المخذلون لعلموا أن الأمن وقوة القلب حق حصري للمؤمن. قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

بينما للمنافق الذل والجبن والحيرة والشك.

ومع هذا كله، فينبغي الحذر من وصف المسلمين بالجبن والتخاذل عن التضحية في سبيل الله وتقريعهم علىٰ عدم مقاومة الظلم. ومع أننا ذكرنا ذلك في مقدمة الحديث عن صفة «كراهية التضحية في سبيل الله» إلا أننا نعيد التأكيد علىٰ هذا التنبيه هنا.

فقد ثبت من وقائع عديدة أن كثيراً من المسلمين ليست مشكلهم الحقيقية في الجبن وعدم الاستعداد للتضحية، وإنما في عدم وجود

قناعة كاملة فيما يضحون من أجله، وعدم وجود هدف واضح للتضحية، ولا كيف يمكن أن تؤدي تضحيتهم إلىٰ الوضع المنشود، مع قلة القدوات الصادقة العاملة، والوقع الأليم لنماذجِ المواجهات التي انتهت بمزيد من القهر والظلم وتسلط المجرمين، وإحساس المسلم بهوان نفسه وقلة قيمته، وضعفِ التعزيز وضعف الإشعار بقيمته المستمدة من عظمة الدين الذي يعتنقه.

ما يحتاجه المسلمون في مثل هذا الظرف ليس الخطاب التثويري العام الذي لا يوضح الغايات ولا الخطوات، ثم يقرعهم علىٰ ضعف الاستجابة ويصفهم بالجبن والنفاق ويُحَمِّلهم جريرة ما بوسعهم وما ليس بوسعهم معـًا، فيزيدهم إحباطـًا وازدراء لأنفسهم، أو نفوراً من الانتماء إلىٰ دينهم وأمتهم، إذ هم يرون هذا الانتماء مصدر ألم نفسي مرهق، أو يدفعهم إلىٰ مواجهات وانفعالات لا تضع في بناء الإسلام لبنة ولا تكسر لعدوه شوكة، بل يزيد المسلمين ضعفـًا وقهراً والمجرمين بطشـًا وتمكنـًا.

إننا في مرحلة نحتاج فيها أن نَضِنَّ بكل نفسٍ مسلمة، وبكل متعلقاتها من وقت ومال وجهد، عن أي هدر وعجَلة واندفاع غير محسوب. لكن في الوقت ذاته لا بد من استدامة حالة الرفض للمنكر، والمباينة لأهل الباطل، والتعالي علىٰ مشاركتهم في باطلهم أو إعانتهم عليه بأي شكل من أشكال المعاونة، واتضاح أن تنقية

العقائد والمفاهيم والرأي العام هدفٌ جليل وعبودية يضحىٰ من أجلها، والسعي الدؤوب لإقامة شرع الله في الأرض، وإعداد العدة لذلك علىٰ مختلف الأصعدة، مدركين أن ذلك يحتاج صبراً ومصابرةً وطول نَفَسٍ وثباتًا وتواصيًا بالحق.

فإذا ابتلي المسلمون في سبيل ذلك جاء خطاب المصلحين هذا في تذكيرهم بمعاني العزة ورفض الظلم وعيشة الذل. والظن بكثير منهم حينئذٍ أن يستجيبوا، إذ قد اتضحت الأهداف وتكونت القناعة بالتضحية في سبيلها، ورأوا المصلحين يتقدمونهم فيما يحثونهم عليه، ورأوا من المصلحين رفعًا لهممهم واحترامًا لذواتهم وتذكيراً بعظم قيمتهم كمسلمين. وهي طريقة النبي ﷺ التي بها وفَّق الله من في قلبه خير لاتباعه ولم يتخلف عن الركب إلا الكفار والمنافقون. فحريٌّ بكل مصلح أن يتأمل ذلك قبل أن يصدر الأحكام علىٰ الناس بالجبن أو النفاق والقبول بعيشة الذل، بينما العيب قد يكون في دعوته ابتداء.

(١٤)
مداهنة السلاطين

وهذا الخُلُق الرخيص هو أول ما يتبادر إلىٰ أذهان الناس عندما تُذكَر كلمة (منافق)..

قَالَ أُنَاسٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَىٰ سُلْطَانِنَا، فَنَقُولُ لَهُمْ خِلاَفَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّهَا نِفَاقًا»[١].

عن ابن عمر أنه رأىٰ الناس يدخلون المسجد فقال: «من أين جاء هؤلاء؟» قالوا: «من عند الأمير». فقال: «إن رأوا منكرا أنكروه، وإن رأوا معروفا أَمَروا به؟» فقالوا: «لا». قال: «فما يصنعون؟» قالوا: «يمدحونه، ويسبونه إذا خرجوا من عنده!» فقال ابن عمر: «إن كنا لنعد النفاق علىٰ عهد رسول الله ﷺ فيما دون هذا!»[٢].

وهذا في أيام ابن عمر، أيام كان الولاة معظِّمين لشعائر الدين مقيمين له بالجملة لا يتخذون مرجعية غيره، ويجاهدون لحماية الإسلام وأهله وبسط سلطانه، وإنما ظَلَموا في بعض المواطن. فكيف

---

١ رواه البخاري (٧١٧٨).

٢ أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٦١) ومن طريقه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وروىٰ نحوَه أحمد في «مسنده» (٥٨٢٩)، وابن ماجه في «سننه» (٣٩٧٥) وصححه البوصيري والألباني وشعيب الأرنؤوط.

لو رأىٰ ابن عمر منافقي هذا الزمان الذين يداهنون مَن لا يقيمون للدين حرمة، بل يُطعن في الدين في عهدهم وتُنحىٰ أحكامه عن حياة الناس...ومع هذا ترىٰ المنافقين يسبحون بحمدهم ويعظمونهم وينظمون لهم شعرا ونثرا؟!

والذي في قلبه نفاق قد يظن أنه علىٰ خير ما دام ينكر المنكرات إذا خلا ببعض أصحابه، مع أنه أمام أهل الباطل يداهنهم وينافق لهم ويُقِرُّ باطلهم. فأين هو من قول رسول الله ﷺ:

((تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه))[1].

فكما في الحديث، قد ترىٰ إنسانا شديد العداوة للإسلام، لكن عنده نبلٌ ولا يطيق أن يناقض قناعاته طويلا. ومن هؤلاء النبلاء عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو رضي الله عنهم، الذين عندما دخلوا في الإسلام أخلصوا وأحبوا الإسلام حبًا شديداً وجاهدوا في الله حق جهاده.

أما المنافق فهو متلون ذو وجهين، يتكلم أمام كل قوم بما يرضيهم ويُظهر أنه منهم، ليدفع نقمتهم وينال رضاهم وخيرهم. فمثل هذا خبيث لا نبل عنده، بل يصفه نبينا ﷺ بأنه «شر الناس».

---

١ رواه البخاري (٣٤٩٣) -واللفظ له- و مسلم (٢٥٢٦)

المؤمن لا يداهن أحدا:

روىٰ الترمذي أن رسول الله ﷺ قال:

((اسمعوا! هل سمعتم؟ أنه سيكون بعدي أمراء. فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم فليس مني ولستُ منه وليس بوارد عليَّ الحوض. ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم علىٰ ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليّ الحوض))[١].

وعندما سأله رجل: أي الجهاد أفضل، أجاب عليه الصلاة والسلام: ((كلمة حق عند سلطان جائر))[٢].

ومع ذلك فقد يتقي المسلم شريراً من الأشرار بلين الكلام بما ليس فيه شرعنة ولا إقرار لباطله ولا تلبيس علىٰ الناس في شأنه. روىٰ البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم ألنت له الكلام؟ قال: (أيْ عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه)[٣].

---

١ رواه أحمد (١٨١٢٦) والترمذي (٢٢٥٩) والنسائي (٤٢٠٧) وصححه الترمذي والألباني.

٢ رواه أحمد (١٨٨٢٨) والنسائي (٤٢٠٩) وصححه شعيب الأرنؤوط والألباني.

٣ رواه البخاري (٦٠٥٤) ومسلم (٢٥٩١)

«فهو ﷺ لم ينطق بباطل مع هذا الرجل الذي دخل عليه، فلم يمدحه، ولم يُثْنِ عليه، ولم يشاركه في سوء أخلاقه، ولم يؤيده علىٰ شيء من مسالكه، وإنما داراه بالبشاشة وطلاقة الوجه – المعهودة عنه عليه الصلاة والسلام علىٰ الدوام–، لعله يؤثر في قلبه بعد ذلك إذا سمع نصحه وتذكيره، فيخلصه من نفاقه وسوء أفعاله»[1].

وبهذا يتضح الفرق الكبير بين المداراة المشروعة والمداهنة التي هي من أخلاق المنافقين.

---

١ من موقع «الإسلام سؤال وجواب».

(١٥)
قلة الأدب مع الله ومع رسوله

فهم المعنيون بقوله تعالىٰ:

﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]

وهم الذين حكىٰ الله ما قالوا:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]

يُعرِّضون بالنبي ﷺ والمهاجرين.

وهم الذين يُسرُّون لبعضهم بالكفر ثم:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]

وقد روىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم وابن كثير بأسانيد عديدة في سبب نزول هذه الآية (التوبة: ٧٤) روايات متقاربة، منها أن النبي ﷺ كان يخطب فقال رجل من المنافقين: (لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير). فقال له زيد بن أرقم رضي الله عنه: فهو واللهِ صادق ولَأَنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلىٰ رسول الله فجحده المنافق فأنزل الله تعالىٰ الآية تصديقا لزيد.

وإن من تلبس بصفات المنافقين في أيامنا هذه تراه قليل التعظيم لله تعالىٰ وآياته ورسوله، حتىٰ أنه قد يحكي الطُّرَف لإضحاك الناس وفيها أن الله قال لجبريل وقال جبريل لله..علىٰ سبيل الطرفة! وقد يستخدم آيات الله في غير موضعها لإضحاك الناس كذلك. وما أقربه بذلك ممن وصفه الله تعالىٰ بقوله:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩] ...

فهو لا يحفظ من القرآن إلا القليل، وما حَفِظَه تراه يستخدمه أول ما يستخدمه في طُرَفه ولِيُظهر خفة ظله![1]

وقد يستهزئ بسنة من سنن النبي ﷺ، أو بمن يطبقها مع أنه شخصيا مفرط فيها، كاللحية والسواك...وكم من الناس يفعل هذا كله وهو يصلي ويصوم ويزعم أنه مسلم!

ولا أرىٰ أولىٰ من هذا بحديث النبي ﷺ:

((وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم))[2].

وشرٌّ منه من زاد علىٰ صفات المنافقين فسب الله أو الدين صراحة، وهؤلاء لن أستطرد في الحديث عنهم في هذا الموضع لئلا يُظن أنهم

---

١ ولنا في هذا الموضوع الخطير مواد منشورة علىٰ مواقع التواصل تحت وسم #لا_مزاح_بآيات_الله، ومحاضرة تفصيلية بعنوان: «أمثلة مما يجوز ولا يجوز من ذكر آيات القرآن في معرض الكلام» ننصح بالاطلاع عليها.

٢ رواه البخاري (٦٤٧٨) – واللفظ له – ومسلم (٢٩٨٨).

منافقون، بل هم بسبهم هذا جاؤوا بالكفر الصريح، ولا يعاملون معاملة المنافقين في الشريعة، ولا ينفعهم في ذلك ادعاؤهم الإسلام أو تعذرهم بالغضب، ولا تنفعهم إلا التوبة النصوح المستوفية لشروطها. وهم إن لم يتوبوا شر من كفار مكة الذين كانوا يدَّعون أن أصنامهم تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ ولم يكونوا يسبون الله، لكني أذكر هذا الصنف للإشارة إلىٰ أن هذا الدرك المتسفل موجود في بعض مَن ينتسبون زورا إلىٰ أمة الإسلام. وأصل هذه الظاهرة الذي تفاقمت عنه هو قلة تعظيم حرمات الله تعالىٰ.

المؤمن يعظم الله تعالىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]

وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]

وقال تعالىٰ في توقير رسوله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح]

ولو لم يَخرج أحدنا من هذه الدنيا إلا بتعظيم صادق لله تعالىٰ فإنه يُرجىٰ له الخير عند الله، كالحديث المتفق عليه في الذي طلب من

أولاده أن يحرقوه وينسفوه ويذروه في الريح. فلما جمعه الله وسأله: ((لِمَ فعلتَ؟)) قال: «مِن خشيتك وأنت أعلم»، فغفر الله له[1].

١ رواه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦)، ولفظه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي البَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي البَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ. فَأَمَرَ اللهُ البَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ. فَغَفَرَ لَهُ).

(١٦)
بُغض المؤمنين وتشويه سمعتهم

فكما أن المؤمن يكره الكفر والفسوق والعصيان، فإن المنافق يغيظه رؤية الفضيلة والطهر والاستقامة، لأنها صفات تَحُول بينه وبين أن يصبح المجتمع نهبا لشهواته ومطامعه. ومن هنا يكره المنافق الدعاة والمصلحين الذين يدْعون الناس إلىٰ هذه القيم.

قال رسول الله ﷺ:

((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله))[١]. وقال:

((آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار))[٢].

وهكذا من طعن في جيل الصحابة بدعوىٰ الانتصار لآل البيت فهو ممن وقع في هذه الصفة النفاقية.

ولذا فإنك ترىٰ المنافق يعمل جاهدا علىٰ تنفير الناس عن المؤمنين:

---

١ رواه البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥).

٢ رواه البخاري (٣٧٨٤) -واللفظ له- ومسلم (٧٤).

- تارة بحرمان الناس من منافع دنيوية إنْ هم أقبلوا علىٰ الدعاة وتأثروا بدعوتهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]

- وتارة بالتشكيك في نوايا المؤمنين. ففي الحديث المتفق عليه عن أبي مسعود: (لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل-أي نحمل علىٰ ظهورنا بالأجرة لنكتسب ما نتصدق به- فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا (أي: المنافقون): مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][1]

- وتارة بالاستهزاء بالمؤمنين ورميهم بصفاتٍ المنافقون أوْلىٰ الناس بها، كما فعلوا في غزوة تبوك فيما روته التفاسير عن عبد الله بن عمر أن رجلا قال في غزوة تبوك: «ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء». فقال رجل: «كذبت!

---

١ البخاري (١٤١٥)، مسلم (١٠١٨)

ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ». فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن. فتعلق المستهزئ بحقب ناقة رسول الله والناس يرمونه بالحجارة وهو يقول: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب»[1].. فتأمل كيف أن هذا المستهزئ وصف المهاجرين بأوصاف هم أبعد ما يكون عنها، بل هي أوصاف المنافقين، من كذب وجبن وحرص علىٰ الدنيا وملء البطون. ولاحظ تعليله: «إنما كنا نخوض ونلعب».. أي: إنما قلت هذا الكلام للتسلية والفكاهة فقط!

فما الآية التي أنزلت؟

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]

فمع أن الرجل لم يستهزئ إلا بالمهاجرين، إلا أنه استهزأ بهم لدينهم، فاعتبر الله تعالىٰ ذلك استهزاء بالله تعالىٰ وآياته ورسوله، وحَكَمَ عليهم بقوله بعدها:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]

فالإسلام لا يدع أتباعه سُذَّجًا يُضحك عليهم بتافه المعاذير ممن ظهرت أمارات نفاقهم وكراهيتهم لدين الله وللمؤمنين.

---

١ أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦٩١٢) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٤) وحسنه مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص١٠٨-١٠٩).

- وتارة بالافتراء علىٰ المؤمنين ونسج الأكاذيب حول سمعتهم، كما فعلوا حينما طعنوا علىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لينالوا من رسول الله ﷺ ويُنَفروا الناس عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].. وهو عبد الله بن أُبَي زعيم المنافقين.

ويبدو أن كثيرا من أفعال المنافقين هذه ناتجة عن حسدهم للمؤمنين..لـمَّا رأوهم مطمئنةً نفوسهم واثقةً خطاهم يقتربون بمرور الزمان من وعد الله بالجنة التي لا زال لدىٰ المنافقين احتمال بوجودها!

فاغتاظ المنافقون لـمَّا رأوا المؤمنين أعلىٰ منهم، وتمنوا لو أنهم شاركوهم في كفرهم ليشاركوهم في المصير المجهول لديهم:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سواء﴾ [النساء: ٨٩]

ولا يزال المنافقون في أيامنا يشوهون سمعة الدعاة والمصلحين والمدافعين عن الدين...ولا يملك هؤلاء الدفاع عن أنفسهم لأن الآلة الإعلامية ليست بأيديهم. فحري بكل مسلم عاقل أن يتمثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]

(١٧)
ابتغاء الفتنة

إن المنافقين استخدموا طريقة فرعون في ادعاء أن المصلحين أهل فتنة وفساد حين قال في نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]

والحق أن المنافقين هم أهل الفتنة المفسدون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١-١٢]

يريدون توهين المسلمين والفتَّ في عضُدهم ليفشلوا وتذهب ريحهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]

والمشكلة أن بعضهم بلغاء ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ٤] ...فيتأثر بهم المجتمع الإسلامي: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٤٧] ...بيان جميل...بل حتىٰ أشكالهم جميلة. ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم أنه رضي الله عنه قال: «كانوا رجالا أجمل شيء»[١]..نعم هكذا كانت أشكالهم،

---

١ رواه البخاري (٤٩٠٣) ومسلم (٢٧٧٢).

لكن معادنهم معادن سوء !

يحرص المنافقون علىٰ إضفاء الشرعية علىٰ فتنتهم من خلال فعل بعض الخير واستخدام أهل الخير!:

وهذا أمرٌ خطير جداً شائع في عصرنا فيجب التنبه له والحذر منه أشد الحذر.

فالمنافقون يعملون أعمالاً ظاهرُها الخير وخدمة الدين لكنهم ما يهدفون منها إلا إلىٰ تفريق المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]

فهم بنوا مسجدا..لكنْ ما بنوه إلا بنية خبيثة: ضرارا وكفرا وتفريقا وإرصادا!... ليفرقوا صف المؤمنين وليجتمعوا في مسجدهم علىٰ التآمر ضد المسلمين!

ثم ماذا فعلوا ليُضْفوا علىٰ مسجدهم هذا الشرعية؟

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم **ليحتجوا بصلاته فيه علىٰ تقريره وإثباته**»، يعني ليُضفوا شرعية علىٰ هذا المسجد الذي ما بنوه لخير. لكن الله تعالىٰ فضحهم لرسوله ﷺ، فلم يُصلِّ في مسجدهم بل هدمه.

ونرىٰ في أيامنا هذه مشاريع خبيثة تتبناها منظمات دولية تسعىٰ إلىٰ هدم الأسرة وإيجاد العداوة بين الزوجين وإفساد الأبناء، وهي في أثناء ذلك تخلط فتنتها ببعض الأعمال «الخيرية» وتحرص أن يكون في موظفيها أناس مسلمون يظهر منهم الصلاح والمظهر الإسلامي، من موظفين مُصَلِّين وموظفات محجبات. وهذا كله يضفي الشرعية علىٰ هذه المؤسسات ومشاريعها ويجعلهم يحسنون الظن بها ويخدر الناس عن التصدي للفتن التي تنشرها. وترىٰ هؤلاء الموظفين يتعذرون لأنفسهم بأنهم يدفعون الشر ما استطاعوا ويتسببون من خلال هذه المؤسسات بكثير من الخير والإعانة لمجتمعاتهم. وهم في الحقيقة أدوات تستخدمها هذه المؤسسات المنافقة لنشر فتنتها وتدمير المجتمعات المسلمة وطمس دينها وأخلاقها وفطرتها.

ونرىٰ في أيامنا هذه قنوات ماجنة مفسدة لا تبتغي إلا الفتنة... نراها تستضيف داعية يتكلم بما يرقق القلوب ويُدمع العيون... لكن يسبق برنامجه ويتبعه دعايات الفسق وأخبار الكذب. وبعض الدعاة يحتجون بأنهم لن يترددوا عن ارتياد أي منبر لإظهار دعوتهم الخيِّرة...لكنهم بذلك يُضفُون شيئا من الشرعية علىٰ قنوات الفتنة هذه، ويُمَيِّعون المسألة في نفوس عامة الناس، ويكسرون حدة استنكار الناس لمنكراتها..

أوَمَا ترىٰ وضوح موقف رسول الله من مسجد الضرار؟ فهو لما علم أن منظومة هذا المسجد بُنيَت علىٰ السوء لم يقل: أصلي فيه

وأستغل أية فرصة لعلي أقلب السحر علىٰ الساحر وأفرض مشروعي من حيث ظنوا أنهم يفرضون مشروعهم.. لم يَقُلها ﷺ. فصاحب الدعوة فطِنٌ عزيز النفس يربأ بدعوته عن أن تُستخدم طُعْمـًا يُزين به المفسدون باطلهم[1].

ومثال الفتن التي يبتغيها المنافقون في أيامنا: محاولة استبقاء حالة تشرذم المسلمين وتمزق أمتهم كما وصف الله أصحاب مسجد الضرار أنهم يريدون ﴿تَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويستخدمون في سبيل ذلك شعاراتِ تقديم وتقديس الوطن بدلاً من ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وحقيقة الأمر أنه ولا حتىٰ هذه الأوطان سلمت لأهلها، وإنما اتُّخذت ذريعة لنهب أموال المسلمين باسم مصلحتها، وتكميم الأفواه والبطش بالمسلمين باسم أمنها.

وقد شدد رسول الله ﷺ في جريمة التفريق بين المسلمين وتقطيع جسد الأمة علىٰ أُسُسٍ جاهلية بقوله:

((إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء : مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون علىٰ

١ أعلم أن المسألة قابلة للاجتهاد بحسب حال تلك القنوات، لكن لا بد للدعاة أن يأخذوا عامل إضفاء الشرعية المذكور في حسبانهم.

الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن))[1]. فإن ناسا كانوا يتفاخرون بقيمٍ غير الإسلام..كانتسابهم لآباء ماتوا علىٰ الكفر..افتخروا بهم لحسبهم أو ثرائهم أو جاههم. فبين عليه الصلاة والسلام أن هذا الفخر يستوجب المهانة علىٰ الله بحيث يصبح المفتخر أهون من حشرات تدفع الفضلات وتدحرجها أمامها. فجُرمُ هؤلاء المفتخرين هو رفعهم لقيمة لا وزن لها في دين الله، من شأنها أن تُشرذِمَ المسلمين إذا استَشْرَت...وكذلك في أيامنا كل من يرفع قيمة لا اعتبار لها شرعا تفرق المسلمين فهو في غاية المهانة علىٰ الله.

---

١ أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وصححه ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»، وحسنه الترمذي والألباني.

(١٨)
قسوة القلب تجاه القرآن

وهذه الصفة-كغيرها من صفات النفاق-لها ارتباط بالشك في الدين:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦]

وهذه الآية نزلت في الكافرين أصالة، ولكنها تبين الارتباط بين الأمرين.

وقال الله تعالىٰ في القسوة والاستغلاق التي تمنع المنافق من تدبر القرآن:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]

ويالَقسوة قلوب المنافقين!..كانوا يأتون مجالس النبي ﷺ فيسمعون القرآن من فمه غضاً طرياً نقلاً عن جبريل الأمين عن رب

العزة جل وعلا...فما ينفعهم سماعه بشيء، ولا يحرك ركامَ الكفر عن قلوبهم: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١]

بل انظر إليهم وقد خرجوا من عند النبي ﷺ بعدما سمعوا الآيات والحكمة فسألوا الصحابة ببلاهة: ماذا قال آنفا؟

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد]

لأنهم لم يفهموا شيئًا من شدة غفلتهم، أو قالوها على سبيل الاستخفاف وإشعاراً بأنهم لم يلتفتوا إلى ما قال رسول الله ﷺ ولم يعبؤوا به.

بل لم يكونوا يستحْيون من قسوة قلوبهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]

فكأني بهم يسأل بعضهم بعضا باستخفاف: «أليس يقول الله أن القرآن يزيد الإيمان؟! ألسنا نرى هؤلاء (أي: الصحابة) يبكون وتعلو هممهم إذا سمعوا القرآن؟! فهل ازددت إيمانا يا فلان؟» فيجيب: «لا»...فيقول السائل: «ولا أنا»!

فرد الله على تساؤلهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ

رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التَّوبَة].

وتصور معي هذه القسوة في قلوبهم! فالقرآن الذي لو أُنزل علىٰ جبل لخشع وتصدع من خشية الله لا يزيد المنافقين الظالمين إلا شكا وخسارا!

واحذر أخي أن يكون لك من هذه الآيات نصيب! فإن كثيراً من الناس يبدأ يومه بتشغيل قراءة القرآن، ثم بعدها بدقائق تقل أو تكثر يشغل الأغاني التي يعلم أنها تدعو للإثم والمنكر ومعصية الرحمن. ولعل قلبه يهتز لهذه الأغاني ويتفاعل معها ما لم يتفاعل مع آيات القرآن. فهل وصل القرآن الذي كان سمعه إلىٰ قلبه؟ وهل زادته آيات الله إيمانا واستبشر بها و وجل قلبه وكانت لهم شفاء ورحمة، كما وصف الله المؤمنين إذا سمعوا القرآن؟ وهل لو حصل له أيٌّ من هذا فإنه سيتقبل أن يستمع ما يخالف القرآن بعدها.

وأقسىٰ قلبا من هؤلاء من اشتُهروا بأنهم من القراء أصحاب الأصوات الجميلة، وترىٰ أحدهم يؤم المسلمين في كُبْرَيات المساجد، ثم تجده يوادُّ المجرمين ويضفي الشرعية علىٰ الظالمين! أو تراه يجاهر بالتحسر أنْ لم يستمع الأغاني من قبل! وليته تمنىٰ لو أنه وقف موقفا في نصرة الإسلام!

قال رسول الله ﷺ: ((أكثر منافقي أمتي قراؤها))[١] .

قال المناوي في شرح هذا الحديث: «أي: الذين يتأولونه علىٰ غير وجهه ويضعونه في غير موضعه. ثم قال: وقال عطاء: احذروا القراء واحذروني معهم. فلو خالفت أودَّهم لي في رمانة أقول إنها حلوة ويقول إنها حامضة ما أمِنته أن يسعىٰ بدمي إلىٰ سلطان جائر!»..أي أن أحدهم يفجر في الخصومة لأتفه الأسباب.

إلىٰ أن قال المناوي: «ولذلك ترىٰ الواحد منهم يتكبر علىٰ الناس ويستخف بهم مُعبِسًا وجهه كأنما يمن علىٰ الناس بما يصلي زيادة ركعتين، أو كأنما جاءه من الله منشور بالجنة والبراءة من النار، أو كأنما استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس، ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت. وهذا لا يليق بالتكبر والترفع ولا يلائمه بل ينافيه، لكن الأعمىٰ لا يبصر»[٢] .

وهذه الكلمات الذهبية للمناوي وصفت العديد من صفات المنافقين من قسوة قلب مع القرآن وفجور في الخصومة واستعظام الطاعة والأمنِ من عذاب الله ورياءٍ بالتظاهر بالتواضع...وهذا كله للأسف كما يصف المناوي في أناس قد قرأوا القرآن بل وربما أوتوا نصيبا من العلم! فنعوذ بالله من هذا الوصف.

---

١ رواه أحمد (٦٦٣٣) والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٥٧)، وفي «خلق أفعال العباد» (٦٤٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٥٠) وشعيب الأرنؤوط.

٢ فيض القدير

قال نبينا ﷺ: ((ومَثَلُ المنافق الذي يقرأ القرآن مَثَلُ الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر))[١].

فهذا مثَل للمنافق الذي يكثر من قراءة القرآن لكن لا يعمل به ولا يُصلِحُ قلْبَه بالإيمانِ، ويَتظاهَرُ أمامَ الناسِ أنَّه مُؤمنٌ. والناس مع ذلك يستعْذِبُون قراءته. فهو بذلك كالرَّيحانةِ التي لها رائحةٌ طيِّبةٌ بينما طعْمُها مُرٌّ، فرِيحُها الطيِّبُ يُشبِهُ قِراءتَه، وطعْمُها المرُّ يُشبِهُ نفاقه.

١ رواه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).

(١٩)
استصغار المعصية واستعظام الطاعة

لما كان المنافق شاكا في الدين فإن أية طاعة يقدمها هي أكبر من حجم إيمانه الضعيف إن وُجد هذا الإيمان إصلاً. لذا فإنه يرىٰ طاعته هذه عظيمة...أما المعصية، فهو ليس علىٰ يقين تام بعظمة الإله الذي يعصيه، وليس مؤمنا إيمانا جازما بنارٍ يُعذَّب فيها علىٰ معصيته، فيرىٰ معصيته صغيرة وإن كانت الجبال تنهدُّ منها!..﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

والمنافق في ذلك علىٰ طريقة صاحب الجنتين الذي اغتر بهما وقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]

والآخر القائل: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]

«لئن رُددت»، و«لئن رُجعت»...يضمنون الجنة «إن وُجِدَتْ»! وهكذا المنافق، يعمل بالقليل من الطاعة ليَدخل الجنة «إن وُجِدَتْ»، أما أن يكون محياه ومماته لله رب العالمين فلا! ولا ينفعه هذا العمل ولا أضعافه ما دام في قلبه شك.

- قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقةً، وإن

المنافق جمع إساءةً وأمنًا»[١].

أي أن المؤمن يحسن في أعماله وهو مع ذلك مشفق خائف من عذاب الله. بينما المنافق يسيء ويقترف الآثام وهو مع ذلك آمنٌ من النار، وقد يتبجح فيقول: «سأدخل الجنة قبلك»!

وتارة يتعلل المنافق في عدم إقلاعه عن المعاصي بأنه يُحسن الظن بالله. قال الحسن البصري: «ليس الايمان بالتمني، ولكن ما وَقَرَ في القلب وصَدَّقهُ العمل. إن قومًا ألهَتْهم أمانيُّ المغفرة حتىٰ خرجوا من الدنيا ولا حسنةَ لهم وقالوا: «نحسن الظن بالله». وكذبوا! لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل»[٢]

وأمانيُّ المغفرة دون عمل هي مما يُعَيَّر به المنافقون عند ضرب السور بينهم وبين المؤمنين: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]

– وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذُباب مَرَّ علىٰ أنفه فقال به هكذا»[٣]..أي: حرَّكَ يده أمام أنفه فطارت الذبابة.

---

١ رواه الحسين المروزي في زوائد «الزهد لابن المبارك» (٩٨٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٩) ضمن حديث طويل، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٤٦٣): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ».

٢ تفسير أبي السعود والألوسي.

٣ البخاري ٦٣٠٨.

وصدق! فكم ترىٰ من أناس يقولون ما لا يليق بالله تعالىٰ أو يغتابون ويلمزون، ثم يقول الواحد منهم: «أستغفر الله»، وهو يضحك بسماجة شديدة! كأن استغفاره هذا ينفعه!

- وروىٰ البخاري عن أنس بن مالك أنه قال:

«إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر، إنْ كنا لَنَعُدُّها علىٰ عهد النبي ﷺ من الموبقات»[1]..و«أدقُّ من الشَّعر» يعني أصغر من الشَّعر، يعني ترون أنه لا وزن لها.

وإن كان أنس رضي الله عنه قال ذلك للتابعين وهُم مَن هُم في الخيرية، فما بالُك لو رأىٰ ما أقحم أهل زماننا فيه أنفسهم من المهلكات وهم لا يعبأون؟! فالله المستعان.

وفي زمن انتشار مواقع التواصل الاجتماعي، قد يكتب أحدنا كلمة، أو ينشر صورة، أو يعلق تعليقـًا، أو يضع إعجابـًا أو يشارك منشوراً. ويكون في ذلك غير ملتفتٍ إلىٰ مشروعية فعله من عدمه، وقد تدوم آثاره السيئة حتىٰ بعد موته.

إن من يقع في استصغار المعصية يشابه فُساق بني إسرائيل الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]..

---

١ البخاري (٦٤٩٢).

فهم يفعلون المعاصي مرة تلو الأخرىٰ ولا يُقلعون عنها ومع ذلك يقولون: «سيُغفر لنا»!

قال الحسن البصري:

«المؤمن مَن يَعلم أنَّ ما قال الله عز وجل كما قال. والمؤمن أحسن الناس عملاً وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جبلاً من مالٍ ما أمِن دون أن يعاين -يعني يرىٰ الجنة عيانًا يوم القيامة ويعلم أنه من أهلها-، ولا يزداد صلاحاً وبِراً وعبادةً الا ازداد فَرَقًا -أي: خوفًا-. يقول: لا أنجو! لا أنجو! والمنافق يقول: سوادُ الناس كثيرٌ -يعني أنا واحد من كثيرين ولن أُقصد بالتعذيب- وسيُغفر لي، ولا بأس علي. يسيء العمل ويتمنىٰ علىٰ الله تعالىٰ»[1].

فالمؤمن يعلم أن الله تعالىٰ إذ قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] ..فهو كما قال، وإذ قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨] ..فهو كما قال. فلا يأمن من عذاب الله إلا إذا عاين الجنة يوم القيامة. ولا يمكن له أن يصل إلىٰ مرحلة يقول فيها: «إن لي عند ربي للحسنىٰ بما أسلفتُ من رصيد خير مهما عملت بعدها» فيستهين بالمعصية، بل لا يزداد إلا خوفًا لازدياد تعظيمه لله تعالىٰ.

وكلام الحسن هذا يجب ألا يتعارض مع أن المؤمن يفرح بطاعته ويحس بأن الله أراد به خيراً إذْ استعمله فيما يحب من أعمال البر.

---

١ رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (٥٣٢)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٩٦)، وفي «ذم الدنيا» (١١١)، وأبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» (٢/ ١٥٣).

وهذه الصفة من استصغار الذنب واستعظام الطاعة منتشرة في أبناء المسلمين في أيامنا هذه..حتىٰ إنك لتحس أن منهم من يمُـــنُّون علىٰ الله تعالىٰ بأعمالهم!

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]..وَلْيُفتش كل قارئ نفسه ألا يجدها أرجىٰ في الجنة من الصحابة وآمن من النار منهم؟!

وقد كنا أجرينا استبياناً لأسباب الوقوع في المعاصي، علىٰ شكل عبارات يختار منها معبئ الاستبيان، و وزعناه علىٰ مصلي صلاة الجمعة في عدد من مساجد الأردن، فأجاب عنه قرابة الـ٧٧٠ مصلياً، وكان ثاني أكثر الأسباب اختياراً هو التعويل علىٰ رحمة الله وشعور معبئ الاستبيان أن الله لن يعذبه.

وسنرىٰ أن استصغار المعصية واستعظام الطاعة يقود إلىٰ صفة نفاقية أخرىٰ هي الإعراض عن التوبة.

حال المؤمن:

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقالت: (أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟). فقال عليه الصلاة والسلام: ((لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ ، ولَكِنَّهمُ الَّذينَ يصومونَ

ويصلُّونَ ويتصدَّقونَ ، وَهُم يخافونَ أن لا تُقبَلَ منهُم أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ))[١] .

وقال إبراهيم التيمي: (ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا)[٢].. أي: يُكذب عملي قولي.

فهكذا المؤمن...مهما عمل من طاعة فإنه يعلم أنه مقصر في حق الله عز وجل، ومهما صغرت معصيته فإنه لا يستهين بها لأنه عصىٰ بها العظيم سبحانه وتعالىٰ.

---

١ رواه أحمد (٢٥٢٦٣) والترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) والحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٦) وصححه الحاكم والذهبي والألباني.

٢ أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٩٧٠) وأحمد في «الزهد» (٢٠٧١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٣٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٤، ٥٧٦) والفريابي في «صفة النفاق» (٨٩)، وعلقه البخاري في باب «خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر» وإسناده صحيح.

(٢٠)
الإعراض عن التوبة

قال الله تعالىٰ واصفا المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] ... ولا غرابة، فإذا كان المنافق قليل الأدب مع رسول الله كما رأينا، ومستصغرا لمعصيته لأنه ما قدَر الله حق قدره، فلماذا يتوب؟!

بل وانظر إلىٰ مدىٰ إعراضهم واستهانتهم بمغفرة الله فيما رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ((من يصعد الثنية، ثنية المرار[١]، فإنه يُحط عنه ما حُط عن بني إسرائيل)).. أي يُغفر له[٢].

قال جابر: فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج. ثم تتام الناس[٣]. فقال رسول الله ﷺ: ((وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر))..وهو منافق لم يكترث بهذه الفرصة لمغفرة الذنوب. قال جابر: فأتيناه فقلنا له: «تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ». فقال: «واللهِ

---

١ موضع بين مكة والحديبية من طريق المدينة

٢ أي: تغفر خطاياه كما وُعد بنو إسرائيل حين قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [البَقَرَة]

٣ أي تتابعوا في الصعود إليها

لأنْ أجِدَ ضالَّتي أحبُّ إليّ من أن يستغفرَ لي صاحبُكم». قال جابر: «وكان الرجل ينشد ضالة له»[١].

فانظر إلىٰ هذا الذي كان أضل من البهيمة التي يبحث عنها، كيف أنه يفضل أن يجد بهيمته علىٰ أن يستغفر له رسول الله ﷺ!

وقال تعالىٰ واصفا المنافقين:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] ...فالمصائب تقعرهم تباعاً ومع ذلك لا يتوبون.

وهذه الصفة هي إحدىٰ ما يُعَيَّر به المنافقون بعد ضرب السور[٢] إذ يقال لهم: ((وتربصتم)) .... أي: أخَّرتم التوبة من وقت إلىٰ وقت كما قال ابن كثير.

ألم تكن الفرصة متاحة لهم في يوم من الأيام؟:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

ومن الناس من يشابه المنافقين في هذه الصفة، فاذا نُصِحَ في ترك معصية قال وهو لا يريد ترك معصيته: «ادع لنا أن يهدينا الله يا

---

١ مسلم (٢٧٨٠).

٢ راجع ما نقصده بضرب السور تحت عنوان: «خطر النفاق علىٰ النفس» في هذا الكتاب.

شيخ»، وهو في قرارة نفسه مستهين بمعصيته ويتعذَّر بأعذار لا حقيقة لها. فليحذرْ من يفعل ذلك أن يشبه من قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

وفي المقابل فهذه صفة المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]

قال السعدي في تفسيرها: «...المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو تَرْك واجب - تذكَّرَ من أيِّ بابٍ أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب اللّه عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالىٰ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا حسيرا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه».

(٢١)
تعريض النفس للفتن

فأولُّ ما يقال للمنافقين بعد ضرب السور: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]

فمَن في قلبه نفاق يحوم حول المعاصي ويتردد عليها، وهو يتعذر بأن ما يفعله اختَلف العلماء في حكمه وليس حراما قطعيا، ويتسقَّط لذلك الفتاوىٰ الشاذة والضالة، ويتعذر لنفسه وللناس بأن قصده طيب..كمن لا يراعي الضوابط الشرعية في التعامل بين الجنسين، وقلبه في ذلك يضطرب ويشتهي، وكمن يُقَلِّب بصره فيما حرم الله، كالذين يتابعون المسلسلات والأغاني الفاسقة. فمن فسد قلبه بذلك فأصبح يستحسن المعصية ويستقبح شعائر الله وأحكامه...فلا يُظن به، وقد فتن نفسه، أن يكون قبل ضرب السور ممن يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ليعينهم علىٰ عبور الصراط! بل يُخشىٰ عليه أن يكون ممن يقال له: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾!

أما المؤمن فحازم يسد علىٰ نفسه الذرائع لئلا تقع في المحذور، ولا يحوم حول الفتن مُتَعذِّراً لنفسه، ولا يحيط نفسه بدواعي المعصية. فإذا ضعف في بعض الأحيان ووقع في معصية، فإنه سرعان ما يتوب ويستبرئ لنفسه منها ومن دواعيها.

وكثيراً ما يتساءل الشباب: «هل يجوز لي أن أدرس في المكان الفلاني؟ أو أن أعمل في العمل الفلاني؟» فأول جواب عن هذه التساؤلات: لا تعدل بسلامة قلبك شيئًا! ولا تُعَرِّض نفسك لأجواء فتن تعلم أنك لا تقدر عليها.

ولْتتذكر أيها الشاب وأنت تشترك في شبكة من الشبكات أو القنوات المتخصصة في الأفلام والمسلسلات و المعروفة بفسقها وفجورها..تذكر قبل أن تضيف تطبيقها علىٰ جوالك أو تدخل المستقبِل لمحطتها «receiver» في بيتك، تذكر: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾!

تلك اللحظة يوم القيامة التي يُضرب فيها أمام المنافقين سورٌ يفصلهم عن المؤمنين فيتساءلون: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ فيأتيهم الجواب: ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحَدِيد].. عرضتموها للفتنة، فيعلمون أنهم هالكون.

(٢٢)
الفجور عند الخصومة

قال رسول الله ﷺ: ((أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّىٰ يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ))[١]

الفجور صفة ذميمة، تُعَرَّف علىٰ أنها الكذب والميل عن الصدق والعدول عن الحق وارتكابُ المعاصي[٢]...وهي تظهر علىٰ مَن فيه نفاق إذا خاصم أحداً.

والفجور، كغيره من صفات النفاق، له ارتباط بالشك في الآخرة... فصاحب الخصومة إنْ كان يؤمن بالآخرة فإنَّ ذلك من أسباب هدوء نفسه، لأنَّ ما لا يأخذه من حقه في الدنيا يبقىٰ رصيداً مُدَّخرا له عند ربه سبحانه وتعالىٰ في وقتٍ تشتد فيه الحاجة. أما من ضعُف إيمانه بالآخرة فإنه لا يستحضر هذا المعنىٰ فيخشىٰ فوات حقه ويريد أن يشفي غيظه فيبالغ في القصاص، كما أنه لا وفاء عنده لأي ودٍّ كان بينه وبين خصمه.

---

١ أخرجه البخاري (٣٤) -واللفظ له- ومسلم (٥٨).
٢ المنجد في اللغة

ومن أكثر ما نرىٰ هذه الصفة في زماننا في مشاكل الأزواج وفيما يكون بينهم عند الطلاق وقبله، فلا يرعون للعشرة حقا ولا يمتثلون قول الله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

وكثيراً ما يكون أيضـًا من أهل الأزواج المحرضين علىٰ التشفي والانتقام وإيقاع الضرر بالطرف الآخر! جاهلين أو متناسين قول نبينا ﷺ: ((ليسَ منَّا من خبَّبَ امرأةً علَىٰ زوجِها))[1]، أي: أفسدها علىٰ زوجها وحرضها علىٰ عداوته أو سوء معاملته. وقوله ﷺ: ((ليس منا)) يدل علىٰ أن هذا كبيرة من الكبائر.

---

١ أخرجه أبو داود (٢١٧٥) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٩٢١٤)، وابن حبان (٥٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢٧٩٥) وأحمد (٩١٥٧) مطولاً بنحوه، وصححه الحاكم والألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢٣)
إخلاف عهد الله

المنافق وكأنه «يجرب» أثر المعصية! لأنه يشك في الله، وإن آمن بوجوده فتصوراته عن الله هزيلة..وهو لا يحسب حساباً لعقوبةِ الآخرة، وكل ما يهمه ألا ينقص نعيم الدنيا. فيُخلف عهد الله رويداً رويداً، فإنْ لم يؤَثِّر ذلك علىٰ مصالحه الدنيوية اطمأن وسَدَرَ في غيه... كحال يهود الذين كانوا يسيئون الأدب مع رسول الله ثم: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]... فما لم يُعاجَلوا بعقوبة فهم مطمئنون!..عقَّب تعالىٰ بقوله:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]

وَلْيتذكرْ كلٌّ في نفسه، كيف كان يُلح علىٰ الله تعالىٰ بالدعاء ويعاهده إن آتاه شيئاً من الدنيا أو جنَّبه شراً كان محدقا به ليكونن من الصالحين وَلَيَجْتَنِبَنَّ ما هو عليه من معصية..فيتكرم اللطيف سبحانه عليه ويعطيه ما طلب..فما هي إلا أيام تقل أو تكثر ويعود المعاهد إلىٰ ما كان فيه من معاصٍ! ويقول في نفسه: «تصادف أن حصل ما حصل»، «لا علاقة للكرب بمعصيتي ولا لرفعه بدعائي»، «أسباب مادية»..

نسأل الله العفو والعافية..فهذا العمل من أهم أسباب نشوء النفاق في القلب. قال الله تعالىٰ:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة]...

كان جزاؤهم علىٰ هذا الفعل الخسيس نفاقَ القلب إلىٰ يوم يلقون الله الذي أخلفوا عهده..فكيف بنا إن فعلناها مراراً ومراراً! نسأل الله العفو والعافية وأن يعاملنا بكرمه وحلمه سبحانه.

(٢٤)
اللحن في القول

فالمنافقون يكرهون الله..يكرهون كتابه لأنه يعارض أهواءهم، وهم عبيد الهوىٰ..

يكرهون شريعته لأنها ترتقي بالإنسان إلىٰ القمم، وهم قد تعودوا علىٰ البقاء في المستنقعات!

لا يستطيعون البوح بهذا صراحةً، فماذا يفعلون؟ يلجؤون إلىٰ اللحن في القول..إلىٰ كلامٍ ظاهره قد ينطلي علىٰ كثير من الناس، لكنه يحمل في طياته خُبثًا..

قال الله تعالىٰ واصفا المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وهذا اللحن في القول له أشكال كثيرة:

فمنهم من يبث سمومه بكلام منمق ظاهره حب الدين والدفاع عنه وباطنه التشكيك والطعن.

فعندما تطاول بعض الحاقدين الغربيين علىٰ رسول الله ﷺ، ولا يضيره وهو صاحب الشرف الرفيع والمقام المحمود، خرج من المنافقين من يقول:

«لا للاستهزاء بالنبي ﷺ. ولكن للنقد»!

وعندما انطلقت حملة المقاطعة لبضائع هؤلاء الغربيين

المستهزئين نعق منافق آخر فقال: «إنها حملة فوضوية تعمق الكراهية والحقد في نفس الآخر وتغذي الإرهاب»![1].

والمقولتان نموذجان علىٰ لحن القول. فالأول يُظهر احترام النبي والاعتراف بنبوته والدفاع عنه، بل ويصلي عليه ﷺ، لكنه ما أراد إلا العبارة الأخيرة التي يدعو فيها إلىٰ نقد النبي المعصوم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النَّجم] !

والثاني يُظهر أنه متفق مع المسلمين في اعتبار ما قام به هؤلاء المستهزئون كراهية وحقدا، لكنه في واقع الأمر أغاظه أن يُقاطَع الكفار الذين يؤذون رسول الله ﷺ، بل وعزَّ عليه أن يسميهم كفارا مع ما قاموا به! فسماهم «الآخر»، واستخدم مصطلح الإرهاب الفضفاض الذي يُدخلون فيه من شاؤوا من أهل العزة الإيمانية الذين يسعون لنصرة النبي ﷺ ويرفضون الاستهزاء به، امتثالاً لأمر ربهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الشُّورَىٰ] .

ولا ينبغي أبداً أن يقال إنه «لا يجوز لنا إساءة الظن بمن يقول مثل هذه الأقوال ولا الحكم علىٰ نيته»!..فإن مثل هذا القول ناتج عن الجهل بقاعدة الأخذ بالظاهر. فالأخذ بالظاهر كما أنه يقتضي إحسان

---

١ حكىٰ هذه الأقوال الشيخ علي القرني حفظه الله في شريطه (أرعد وأبرق) ورد علىٰ أصحابها الرد الذي يناسبهم

الظن بمن أظهر خيرا، فإنه كذلك يقتضي الحكم بالسوء علىٰ من تكلم بكلامِ نفاقٍ كهذا، خاصةً إذا عُرف منه أمثال هذه المقولات وظهر منه استخفاف بالدين، وإلا لَمَا جعل الله تعالىٰ لحن القول علامة فارقة للمنافقين نعرفهم بها: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

ومِن المنافقين مَن يلجؤون إلىٰ أسلوب آخر..تراهم ينتظرون، فإذا مات محاربٌ لله ورسوله وكتابه وشريعته.. مدحوا هذا الهالك، وأشادوا بـ «شجاعته» و«جرأته» و«قوته في نشر مبادئه»..

يكيلون له المديح حتىٰ لكأنهم عاشوا معه وأكلوا معه ورأوا من أخلاقه وسيرته ما يستوجب المدح!

مع أنهم لربما لم يقرؤوا له كتاباً ولا حضروا له محاضرة، وإنما يَعرفون عنه شيئاً واحداً: أنه عدو لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ! وهذا يكفيهم ليمدحوه!

ولسان حالهم: «أنت تعبر عنا وتقول ما لا نستطيع قوله، أو ما اقتضىٰ توزيع الأدوار ألا نُعْلِنه».

فيُظهرون الرحمة والإنسانية و«التوازن» في الحكم علىٰ الأشخاص، ليُغَطوا بها كراهيتهم لله، واشمئزازهم من ذكره، وحقدهم الدفين علىٰ شريعته[1].

---

١ وقد رأينا أمثال هذا عند هلاك نوال السعداوي!

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

وكذلك ترىٰ من يكيل المدح لكبار الملحدين عند هلاكهم، كمديحهم المفرط لستيفن هوكنج[١]. ويكيل المدح للأحياء من كهنة الإلحاد ويمجدهم، كقوله في ريتشارد دوكنز (الذي بيَّنَّا في رحلة اليقين أنه مزور كبير للعلم وكذاب مخادع): «عالم سبحان الله.. تختلف معه، تتفق الرَّجل عالِم، وعنده نَفسيَّة عالِم، ومشاعر عالِم، يُقَدِّس العِلم، مُبتهِج بالعِلم، يَفرح بالعلم، شيءٌ عجيب»[٢]. وكل هذا من أشكال لحن القول.

ومن أشكال لحن القول ما تفعله منظمات دولية من إظهار الاحترام للإسلام مع غيره من الأديان، في الوقت الذي تروج فيه للكفر والموبقات الأخلاقية ومحاربة الفطرة في المجتمعات المسلمة، مُدَّعِية أنها إنما تحارب الفهم الخاطئ للإسلام! وتستخدم العبارات المنمقة مثل «حقوق المرأة»، «التمكين للمرأة»، «حقوق الطفل» لتخفي بها ما حقيقته تدمير المرأة والطفل والأسرة واستعبادُ الناس. وانظر في ذلك سلسلتنا: «الحرب علىٰ الفطرة» علىٰ اليوتيوب.

---

١ راجع حلقة «لماذا يلحد بعض أتباع عدنان إبراهيم» من سلسلة رحلة اليقين.

٢ راجع حلقة «عبَدة الميكروبات» من «رحلة اليقين».

فعلىٰ المؤمن ألا يُخدع بالأقوال المنمقة لأيٍّ كان، وأن يستحضر ما رواه البخاري أن عمر رضي الله عنه قال:

(إنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بالوَحْيِ في عَهْدِ رَسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإنَّما نَأْخُذُكُمُ الآنَ بما ظَهَرَ لَنَا مِن أعْمَالِكُمْ، فمَن أظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أمِنَّاهُ وقَرَّبْنَاهُ، وليسَ إلَيْنَا مِن سَرِيرَتِهِ شَيءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، ومَن أظْهَرَ لَنَا سُوءًا، لَمْ نَأْمَنْهُ ولَمْ نُصَدِّقْهُ، وإنْ قالَ: إنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ)[1].

وننصح بقراءة كتاب «زخرف القول» للدكتور فهد العجلان والمهندس عبد الله العجيري. فهو نافع في هذا الموضوع بإذن الله.

---

١ البخاري (٢٦٤١).

(٢٥)
الغفلة عن تأمُّل حِكم الله مِن أقداره

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن سعيد بن المسيب قال: «كُنْتُ مع سَلْمانَ وعادَ مَرِيضًا في كِنْدَةَ، فلمَّا دخلَ عليهِ قال: أَبْشِرْ. فإنَّ مَرَضَ المؤمن يَجْعَلُهُ اللهُ لهُ كَفَّارَةً ومُسْتَعْتَبًا. وإنَّ مَرَضَ الفاجرِ كَالبَعِيرِ عَقَلَهُ أهلُهُ ثُمَّ أَرْسَلوهُ، فلا يَدْرِي لِمَ عُقِلَ ولِمَ أُرْسِلَ»[١].

«ومعنىٰ أن المرض يكون مستَعْتَبًا للمؤمن أي أنه يكون سببًا في محاسبة نفسه ورجوعه عن الإساءة، ويقظته من غفلته. بخلاف الفاجر، فإن مرضه لا ينفعه، وهو لا يزال مصراً علىٰ المعصية، ولذلك هو كالبعير الذي أمسكه وربطه أهله ثم أرسلوه فلا يدري لماذا أُمسك ولماذا أُرسل! وكذلك الفاجر إذا مرض لا يدري لماذا مرض وما هي الحكمة من المرض ولا يحتسب أجراً ولا يرجع إلىٰ الله»![٢]

---

١ أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١١٢٤)، وهناد في «الزهد» (٤١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٣)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٥)، وأبو نعيم ألأصبهاني في «الحلية» (١/ ٢٠٦)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد ٣٧٩: صحيح الإسناد.

٢ من محاضرة «فوائد المرض» للشيخ محمد صالح المنجد فرج الله عنه، مع تصرف يسير.

المؤمن يعلم أن الله سبحانه حكيم في أفعاله كلها، وأنه يستخرج من عباده عبودياتٍ بابتلاءات السراء والضراء..﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأَنبِيَاء: ٣٥] ..فيفكر دائمًا: «ما العبودية التي يحبها الله مني في هذا الموقف؟».

أما المنافق، فهو في كثير من أحواله قد نسي الله سبحانه (وهي الصفة التي سنتكلم عنها بعد هذه الصفة)، فلا يفسر الأحداث علىٰ ضوء الإيمان بحكمة الله، ولا يتفكر في هذه العبوديات. قال الله تعالىٰ في زجر المنافقين: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، فانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ومِن المسلمين مَن يقع في مثل هذا. فإذا انتشر وباء أو حلَّت مصيبة وقيل: «هي تذكرة من الله تعالىٰ» قال: «لا علاقة لها بذلك! إنما هذه أسباب مادية». وجزء من إشكاليتهم في هذا جهل معرفي، إذ يظنون أن الأمر إما أن يكون لسبب مادي أو لسبب غيبي، ولا يدركون أن الله تعالىٰ يقلب عباده بين السراء والضراء بأسباب مادية، فكلٌّ من عند الله..﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فلا تعارض بين أن يكون للحدَث الواحد سببٌ مادي وسببٌ غيبي. قد يعُقُّ شخصٌ أبويه ويصاب بعدها بمرض. فمعرفة

أسباب المرض المادية لا تُعارِض أن الله تعالىٰ قد يكون قدَّرَ عليه هذا المرض لعقوقه. قال رسول الله ﷺ: (ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ و لا عَيْنٌ إلَّا بذنبٍ ، وما يَدْفَعُ اللهُ عنهُ أكثرُ)[1].

والمسلم مع ذلك لا يجزم بأن الله قدَّر هذا الحدث أو ذاك من الأحداث الطارئة لهذه الحكمة أو تلك بالذات. وإنما يعلم أن ما يحصل معه تذكيرات تجعله يلجأ إلىٰ الله تعالىٰ بالشكر في السراء والصبر والتوبة في الضراء. بالإضافة إلىٰ أن كل الأحداث في هذا الكون وأسبابَها المادية مقرونة بسبب غيبي إلا وهو مشيئة الله تعالىٰ وتدبيره.

---

١ أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٥٣) وأبو نعيم ألأصبهاني في «تاريخ أصبهان» (٢/ ٢١٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٥).

(٢٦)
نسيان الله تعالى

واعجبًا من نسيان بعض الناس ربهم سبحانه وتعالىٰ!!..فلا يتعلمون ولا يعملون بما يقربهم إليه سبحانه. ولا ترىٰ أحدهم يسأل عن الحلال والحرام. وهذه صفة المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]

نسوا الله فنسيهم، فلا يبالي الله في أي وادٍ يَهلك أحدُهم.

وجزاؤهم أن يُنْسِيَهم الله تعالىٰ أنفسهم فلا يعملون بما ينفعهم ويحيي قلوبهم وينجيهم في معادهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]

وقال تعالىٰ واصفا أكثر الناس:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ..قال ابن كثير: «أي: أكثرُ الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها. فهم حُذَّاقٌ أذكياءُ في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الاخرة، كأن أحدهم مُغَفَّلٌ لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله لَبَلَغَ من أحدهم بدنياه

أن يقلب الدرهم علىٰ ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي»[١].

وقريبٌ من ذلك حال كثيرين من أهل زماننا..تراه جادًّاً مجتهداً مشمرَ الذراعين حاسراً عن الساقين في أمر دنياه، فإذا سألته: أتصلي؟ قال: «أُقَطِّع»!..فنعوذ بالله من غفلة القلوب.

١ تفسير ابن كثير

كلام مختصر في علاج النفاق

علاج النفس من النفاق موضوع كبير يصعب حصره في كتاب واحد مختصر كهذا. فالنفاق له أسباب تربوية واجتماعية ونفسية وفكرية. فأخطاء الوالدين والمعلمين التربوية من أسباب نشوء النفاق في نفوس الجيل. والقهر والظلم الاجتماعي من أسبابه كذلك. قال ابن خلدون: «من سِيمَ الخسف تمرَّس في عادات النفاق»، أي: من مورس عليه الظلم الشديد لفترات طويلة فإنه يعتاد طباع النفاق ويتقنها. والهزيمة النفسية المكرسة في نفوس كثيرين من أسباب نشوء النفاق في قلوبهم. وكذلك الجهل بحقيقة الإسلام وحقيقة الجاهلية معًا.

كما أن نشوء النفاق أو بعض صفاته في القلب هو نتيجة ارتفاع الإيمان أو بعضه من القلب. فكل كلام في خصال الإيمان وكيفية تحصيلها والحماية من فقدانها هو كلام عن النفاق من وجه آخر، لأن الذي يحل محل الإيمان إذا ارتفع من القلب هو إما كفر ظاهر وإما نفاق.

فالحديث عن علاج النفاق ومنعه ابتداء يطول، إلا أننا سنشير إلىٰ بعض العوامل الوقائية والعلاجية باختصار. وهذه العوامل كنتُ قد

كتبتها من قبلُ كعوامل لعلاج كراهية ما أنزل الله تعالىٰ. ثم اخترت أن أُعَمِّمَها كعلاجات للنفاق، إذْ أن كراهية ما انزل الله لها دور كبير في نشوء الصفات النفاقية الأخرىٰ.

ومن عوامل العلاج:

١. تصحيح المركزية والمعايير الحاكمة في حياة المسلم اليومية:

وذلك بإحياء مفهوم مركزية الله والدار الآخرة في حياة المسلم في مقابل مركزية أهواء الإنسان وشهواته. وقد شرحنا ذلك في حلقة «وهم الحرية»[١]. وهذا يتطلب تثبيت الإيمان بالله والدار الآخرة[٢]، ثم العمل بمقتضىٰ هذا الإيمان، وأن يكون همُّ الإنسان الأكبر تحصيل رضا الله للنجاة في الآخرة، وأن تنبثق المعايير التي يحكم بها علىٰ الأشياء من الشرع وحده مع نبذ كل المعايير البشرية. فمثلا معيار «الحرية» له مفهوم وضعه الغرب ونشأ من نظرته للحياة، فلا يصلح أن نأخذ به بغض النظر عن التزويقات والتزيينات التي تضفىٰ عليه لتمريره علينا، لأنه نقيض لمعيار العبودية لله وحده والانقياد المطلق لطاعته سبحانه. وكذلك معيار «المساواة» المطلقة فهو مناقض للشرع

---

١ ضمن سلسلة «كن عزيزاً بإسلامك»، قناة الدكتور إياد قنيبي الرسمية علىٰ يوتيوب.

٢ ننصح في ذلك بسلسلة رحلة اليقين للمؤلف، قناة الدكتور إياد قنيبي الرسمية علىٰ يوتيوب.

والعقل والفطرة، والمعيار الذي ينطلق منه المسلم هو معيار العدل الذي جاءت به الشريعة[١].

٢. الحفاظ علىٰ السوية الفطرية:

وهذا يتطلب إتقانًا لفن التربية. وصفات النفاق كثيراً ما تنشأ عن انحراف الفطرة وطمسها. فهي مضادة للصفات الفطرية التي تتضمن معاني الحياء والرحمة والشهامة والنخوة والكرامة والعزة ورفض الظلم.

٣. تعلُّم ما أنزل الله وتصحيح الصورة الذهنية عن أحكام الإسلام[٢] واستعراض واقع المجتمعات المنقطعة عن الوحي:

فتعلَّمْ حال المجتمعات التي انقطعت عما أنزل الله، ثم اسأل: هل لا بد من أن نخوض تجربة هذه المجتمعات بكامل فصولها؟! هل لا بد من أن نذوق مراراتها وشقاء الأرواح فيها قبل أن نعلم أن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير؟!

---

١ راجع سلسلة المرأة للمؤلف، قناة الدكتور إياد قنيبي الرسمية علىٰ يوتيوب.

٢ وهو ما نقدم شيئا منه في «سلسلة المرأة»، ويقدم فيه إخوة فضلاء في دوراتٍ مثل «صناعة المُحاور». راجع مثلاً حلقة «تحرير المرأة الغربية-القصة الكاملة»، وحلقة «الإسلام وضرب المرأة»، وحلقة «أنا حرة»، وحلقة «أنا مش شغالة البيت».

٤. تكوين النظرة السُّنَنية:

بمعرفة أنه لا بد من التدافع، واستعراض حال البشرية تاريخيا حين حُرمت من سيادة سلطان الإسلام، وأن صورة عالَم بلا تدافع ينسجم فيه الجميع بمعايير إنسانوية ولا مكان فيه لآيات الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والجهاد ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [الأَنفَال:٣٩] ، أن هذه الصورة الحالمة فاشلة لا رصيد لها من الواقع ولا التاريخ[١]. وإنما تروَّج هذه الصورة بين أبناء المسلمين لكسر شوكتهم ونزع إرادتهم وقتل ما تبقىٰ لديهم من روح العزة والإباء.

٥. ترك المعصية:

استحضر في ذهنك إذا دعتك نفسك للمعصية أن الاستجابة لها قد تؤدي بك إلىٰ النفاق، وتذكر: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [النُّور:٦٣] .

٦. إدراك محدودية العقل البشري:

فإذا أدركتَ قصور عقلك البشري مع غَلَبة الهوىٰ والشهوات[٢]

---

١ وانظر في ذلك محاضرة (نماذج «السعادة» البشرية في غياب الفتوحات الإسلامية) للمؤلف علىٰ النت.

٢ والتي تتخفىٰ أحيانا بلباس العقل والحكمة.

علمت أن نفورك من حكم بيِّنٍ من أحكام الله إنما هو لقصورٍ عندك، لا في الحكم نفسه.

فالإنسان لا يعرف طبيعة الروح التي بها يعيش، ولو اجتمع أكبر أطباء الأرض حول مريض قَدَّرَ الله عليه أن تخرج روحه ما استطاعوا رد الروح إليه.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة]. أي فإذا كنتم صادقين في أنكم غير محاسَبين بعد الموت، فلولا حاولتم عند المحتضر إذا بلغت روحه الحلقوم أن ترجعوها إلىٰ مواقعها من أجزاء جسده! فما صَرَفكم عن محاولة ذلك إلا العلم الضروري بأن الروح ذاهبة لا محالة. فإنَّ إيداع الأرواح في الأجساد تصرُّفٌ من تصرف الله تعالىٰ، وهو الحكيم. فما نزع الأرواح من الأجساد بعد أن أودعها فيها مدة إلا لأن انتزاعها مقتضىٰ الحكمة أن تُنتزع، ليجري عليها الحساب علىٰ ما اكتسبته في مُدة الحياة الدنيا[1].

فكيف يسمح هذا الإنسان الذي لا يستطيع خلق الحياة ولا منع الوفاة ولا يعرف طبيعة الروح التي بها يعيش، كيف يسمح لنفسه أن

---

١ هذا التفسير مستفاد من التحرير والتنوير لابن عاشور.

يعترض علىٰ شيء من أحكام خالقه لأنها لا توافق العقل القاصر؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس].

٧. الثقة بعلم الله وحكمته ورحمته:

وذلك في مقابل إدراك ضعف وقصور العقل البشري. ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

تذكر أنه سبحانه خالقك، فهو أعلم بما يَصلح لك ويُصلحك. قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

تذكر حكمة الله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين].

تذكر رحمة الله سبحانه وتعالىٰ، وأنه تعالىٰ شرع هذه الأحكام لعلمه بضعفك، فأراد أن يُجَنِّبك الحرج الناتج عن اتباع الأهواء.

في سورة النساء، بعدما بين الله أحكاما متعلقة بالتعامل بين الجنسين قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء].

فاحذر أن تكره شيئا مما أنزل الله لإحساسك أنه صعب علىٰ النفس البشرية الضعيفة. فهو سبحانه أرحم بضعفك. واحذر أن تطيع الذين يتبعون الشهوات، فهم يريدون لك أن تميل ميلا عظيما فتتعس في الدارين، في الوقت الذي يريد الله أن يتوب عليك ويخفف عنك.

تذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات].

قال ابن كثير:

«أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمُّ من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالىٰ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلىٰ مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.. أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدىٰ ذلك إلىٰ عَنَتِكم وحرجكم». انتهىٰ كلام ابن كثير.

إذاً لو كان الأمر علىٰ أهواء البشر لأصابتهم المشقة، لكن الله

عصم قلوب الصحابة من أن يصيبها مرضُ كراهية ما أنزل الله. قال تعالىٰ في تتمة هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات].

٨. معالجة الخلل في اليقين بالله وصحة الرسالة:

فإنْ كان عندك خللٌ أو ضعفٌ في اليقين بوجود الله تعالىٰ ووحدانيته وبأن القرآن كلام الله ومحمداً ﷺ رسول الله، فإن هذا الخلل أو الضعف يجعلك عرضة للنفاق.

في المقابل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

فالموقن سيدرك حقيقة أن حكم الله هو الأحسن، وسيرىٰ حسن هذا الحكم وجماله وكماله.

٩. الدعاء:

توجه إلىٰ الله بالدعاء وصدق الإلحاح، واطلب الهداية من مقلب القلوب. ادعُ الله تعالىٰ أن يجعلك ممن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان. فهو تعالىٰ القائل في الحديث القدسي: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني

أهدكم)[١].

كان من دعاء نبينا ﷺ:

((أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلىٰ حبك))[٢].

واستحضر هذا المعنىٰ وأنت تقول في أذكار الصباح والمساء: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا.

استحضر أنك تَرضىٰ بالله ربا بالفعل، فترضىٰ كل آية في كتابه تعالىٰ فهو كلام الله.

وترضىٰ بالإسلام دينا، فترضىٰ بشريعته وبشعائره..

وترضىٰ بمحمد ﷺ نبيـًا، فتحب سنته ولا تجد في صدرك حرجا من شيء منها.

فاحرص علىٰ العمل بهذه العلاجات لتلقىٰ الله بقلب محب له سبحانه ولدينه، سليم من النفاق ومن كراهية ما أنزل ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝٨٨ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

---

١ مسلم (٢٥٧٧)

٢ أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥)، وفي «العلل الكبير» (٦٦١ / ترتيبه)، والحاكم في «المستدرك» (١٩١٣) وصححه الألباني.

خاتمة

أما بعد، فقد ظهرت لنا صفات المنافقين واستبانت سبيل المجرمين..بَثَّها الله تعالىٰ في كتابه وفَصَّلَها علىٰ لسان رسوله ﷺ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] ... وكلٌّ يغدو، فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها.

فَلْيَخْتر امرؤٌ لنفسه: أيريد أن يكون ممن قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].. رِجسٌ، نَجَس مُستقذَر لا يُرفع من أرضه! وذلك في حياتهم..

وَلْيختر امرؤٌ لنفسه: أيريد أن يكون علىٰ شاكلة قومٍ بلغ من مقت الله لهم أنه لم يعطهم فرصة أخرىٰ ليُطَهِّروا سِجلهم الأسود، لَـمَّا علم سبحانه أن نفوسهم أخس من ذلك:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]

وَلْيختر امرؤٌ لنفسه: أيريد أن يكون من أهل المهانة عند قبض الأرواح: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]

وَلْيخترْ امرؤٌ لنفسه: أيريد أن يكون علىٰ شاكلة أقوام لم يرتض الله تعالىٰ لنبيه أن يصلي عليهم ولا يدعو لهم عند مماتهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]

وَلْيخْتر امرؤٌ لنفسه: أيريد عند التمايز أن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] ..هكذا! ركام من النفوس الخبيثة..أخلاطٌ من المنافقين والكافرين تُعامل يوم القيامة كالمهملات فتُكب في النار![1].

فمهانةٌ في الدنيا، ومهانة عند نزع الروح الخبيثة، ومهانة عند الحساب..ثم بعد ذلك الذل الأطول في الدرك الأسفل!

فيا أخي المسلم ويا أختي المسلمة..حذارِ من صفات المنافقين!

---

١ أشار إلىٰ شمول هذه الآية المنافقين كتاب التحرير والتنوير ج١ ص١٧٥٧

فوالله لواحدةٌ منها مَهْلَكة، فكيف إذا انضمت صفات منها عديدة في شخص واحد!

فاحذر أيها العاقل! فما ترضىٰ لنفسك أن تلقىٰ الله وأنت علىٰ شاكلة أقوام قطع الله أمل كل أحد في أن يغفر لهم:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]

ولا يغرنَّك كثرة أموالهم وعددهم، فما هي إلا زيادةُ نكالٍ عليهم:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ففي حياتهم لا يزيدهم مالهم إلا غما وهما، فهم إن أنفقوا في وجوه الخير أنفقوا كارهين، وإن ابتُلوا في أموالهم أو أولادهم انقلبوا جزعين هلعين..

ثم يؤكدها الله تعالىٰ بعد تفصيل صفاتهم مرة أخرىٰ بقوله:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]

وَلْيتذكر كل منا أن النفاق الذي فصَّلنا القول فيه ليس ظاهرة انقرضت، بل هو داء العصر الأخطر...وأن الصحابة، خيار الناس، الذين صحبوا نبينا ﷺ وضحوا التضحيات، خافوا علىٰ أنفسهم من النفاق..فلسنا نحن أولىٰ بالأمن منهم. وَلْيُعِد القارئ قراءة فصل: «حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس» في أوائل الكتاب ليربط به صفات النفاق بعد أن استوعبها، ويرىٰ إن كان له نصيب منها.

وليتذكر كلٌّ منا أن الله تعالىٰ ما خلق الخلق وأرسل الرسل إلا ليتمايز الناس. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب]

قال ابن قتيبة: أي: عرضنا الأمانة ليَظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله، ويَظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه..أي: يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات[1].

وباب التوبة مفتوح...قال تعالىٰ بعدما ذكر أن المنافقين في

---

١ تفسير البغوي

الدرك الأسفل من النار: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]

فنسأل الله تعالىٰ أن يطهر قلوبنا من النفاق ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن يحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

وختاما، من قرأ هذا الكتاب فاستفاد منه في تنقيةِ إيمانه فلعله يدعو لكاتبه بخير، وليتذكر أن المَلَكَ يقول: «آمين، ولك بمِثل»[1]. ومن وجد فيه خطأ في المبنىٰ أو المعنىٰ فلا يبخل علينا بنُصحه، فالمؤمنون نَصَحَة والمنافقون غَشَشَة.

انتهيت من كتابة الطبعة الثانية في جمادىٰ الآخرة ١٤٤٤ من هجرة الحبيب المصطفىٰ نبينا محمد ﷺ

الراجي عفو ربه: إياد عبد الحافظ قنيبي

---

١ للحديث الذي رواه الإمام مسلم (٢٧٣٢)، أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمِثل).